IAQD3073

العقيدة للتخصص4

المحتويات

الدرس الأول: الإيمان بالملائكة
الدرس الثاني: الإيمان بالكتب السماوية
الدرس الثالث: التعريف بالكتب السماوية السابقة، وبيان خصائص القرآن
الدرس الرابع: القضاء والقدر
الدرس الخامس: مسائل في القدر
الدرس السادس: أشراط الساعة وأماراتها (1)
الدرس السابع: أشراط الساعة وأماراتها (2)
الدرس الثامن: أشراط الساعة وأماراتها (3)
الدرس التاسع: عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين بين الإقرار والإنكار
الدرس العاشر: تتمة الحديث عن عذاب القبر، ومسائل أخرى في الحياة البرزخية
الدرس الحادي عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (1)
الدرس الثاني عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (2)
الدرس الثالث عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (3)
الدرس الرابع عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (4)
الدرس الخامس عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (5)

الدرس الأول: الإيمان بالملائكة

عناصر الدرس

العنصر الأول: تعريف الملائكة، وحكم الإيمان بهم، والدليل على ذلك.

العنصر الثاني: الملائكة –عليهم السلام–: صفاتهم، أصنافهم، أعمالهم.

العنصر الأول: تعريف الملائكة، وحكم الإيمان بهم، والدليل على ذلك

1. تعريف الملائكة، واشتقاق التسمية:

المراد بالملائكة لغة، واشتقاق التسمية:

تعريف الملائكة لغةً: جمع ملك، وأصله مَأْلَك، وقيل: مَلْأَك، على وزن "مَفْعَل"، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام وأسقطتْ، فوزن مَلَك: مَفَل، وقيل: إنه مأخوذ من "لَأَك" إذا أرسل، فملأك وزنها "مفعل"، ثم نقلت الحركة و سقطت الهمزة فوزن ملك: مَفَل، وقيل غير ذلك. والهاء في الملائكة مزيدة لتأنيث الجمع، أو للمبالغة.

واشتقاق الملائكة من الأُلُوكَة، وهي الرسالة قال الشاعر:

فلست بإنسي ولكن لملأكٍ * تنزل من جو السماء

وسُمي الملائكة بهذا الاسم؛ لأنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه في إبلاغ رسالات الله تعالى إلى الناس، وإرسال أوامر الله تعالى ونواهيه، وتسيير شئون الكون والإنسان، قال بعض المحققين: المُلْك من المَلْك، والمتولّي من الملائكة شيئًا من السياسات يُقال له: مَلَك، والمتولي من البشر شيئًا من السياسات يقال له: مَلِك.

إذًا: الملائكة مخلوقات غيبية خلقهم الله تعالى لعبادته، و سخّرهم لطاعته، ليسوا بشرًا ولا جنًّا، ولكنهم مخلوقات عجيبة نورانية، قادرون على التشكّل، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الألوهية أو الربوبية شيء، وقدرتهم العجيبة بحول الله ومشيئته، وليست قدرة ذاتية بدون مشيئة الله.

وقد ورد أنهم يستغفرون للذين آمنوا في الأرض، وأنهم يشفعون لمن رضي الله عنهم وقبل شفاعتهم فيهم؛ قال تعالى: {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ} [النجم: 26]، فالمراد بالملائكة هم أولئك الرسل السَّفَرة الكرام البررة، الموكلون بمهامّ تتعلق بالإنسان والكون.

ومنهم الحافّون بالعرش، والذين يحملونه -أي العرش-وخزنة جهنم، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ومنهم ملائكة سيّاحون يطلبون حِلَق الذكر، إلى غير ذلك من أصنافهم وأعمالهم.

من أجل ذلك سُميت الملائكةُ ملائكةً لوظيفة الإرسال، والسفارة بين الله تعالى وخلقه التي تميّزوا بها؛ فالملائكة مشتقّة من الألوكة، وهي الرسالة.

تعريف الملائكة اصطلاحًا: هم أجسام علويّة، قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية، ذَوُو قدرات خارقة لا حصر لهم، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، مقربون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية أو الألوهية شيء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله-: اسم الملائكة والملك يتضمّن أنهم رسل الله، كما قال تعالى: {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر: 1]، وكما قال: {وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا } [المرسلات: 1]، فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبّر به السموات والأرض، كما قال تعالى: { وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: 61]، وكما قال { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: 80]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال: { يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ } [النحل: 2]، وقال تعالى: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ} [الشورى: 51]، وقال تعالى: { ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ} [الحج: 75].

ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يُذكر هنا، كما ذكر تعالى في خطابه للملائكة وأمره لهم بالسجود لآدم.

وقوله تعالى: { فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ } [فصلت: 38]، وقوله تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ } [الأعراف: 206]. انتهى كلامه -رحمه الله.

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله-:

"الملائكة هم عباد الله المكرمون، والسفرة بينه تعالى وبين رسله -عليهم الصلاة والسلام- الكرام خَلْقًا وخُلُقًا، والكرام على الله تعالى (البررة) الطاهرين، أي: ذاتًا وصفة وأفعالًا، المطيعين لله ﷻ، وهم عباد من عباد الله ﷻ، خلقهم الله تعالى من النور لعبادته، ليسوا بنات لله ﷻ ولا أولادًا ولا شركاء معه، ولا أندادًا -تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوًّا كبيرًا- قال الله تعالى: { وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ } [الأنبياء: 26- 29]" انتهى كلامه -رحمه الله.

المراد بالإيمان بالملائكة جملة:

لّما كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الســـتة، وكانت الملائكة من الأمور الغيبية التي ا ستأثر الله تعالى بمعرفة حقائقها، وأو صافها، وتف صيلات حياتها؛ كان الإيمان بها جملةً أمرًا واجبًا على الم سلم، وكذلك ال شأن فيما يتعلّق بأيّ أمر وجب الإيمان به و لم يردْ تف صيله؛ فمثلًا: الأنبياء والمر سلون يجب الإيمان بهم جملةً، وأن اللهَّ تعالى أر سل ر سلًا وبعث أنبياء؛ منهم من علّمنا الله اسمه ور سالته و شيئًا من حياته وق صته مع قومه، ومنهم من لم يق صصْ علينا خبره؛ فنؤمن بهم في الجملة، ولا نفرق بين أحد منهم، ونفصـــّل إيماننا فيمن جاء التفصيل عنه.

كذلك الحال بالن سبة للملائكة فنؤمن بهم في الجملة، ونعتقد جازمين أن الله ﷻ خلق خلقًا من نور يـ سمون الملائكة، وهم م سخرون للطاعة وم ستغرقون في العبادة، لا يع صون الله ما

أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن هذه الملائكة أ صناف عديدة لا يعلم كنه حقيقتها، ولا عدد طوائفها إلا خالقها –جلّ وعلا– وأن هذه الملائكة موكّلة بأعمال كثيرة؛ فمنها من وُكّل بالمطر، ومنها من وُكّل بالأرزاق، ومنها من وُكّل بالنبات، ومنها من وُكّل بحركة الشـــمس، ومنها من وُكّل بحركة القمر والأفلاك.

ومنها الموكلون ببني آدم، ومنها ملائكة الجنة، وخزنة جهنم –أعاذنا الله منها– ومنها حملة العرش، ومنها الملك الموكل بالوحي إلى الأنبياء والرســـل، ومنها ملك الموت؛ فنؤمن بهذه الملائكة في الجملة، وأن الملائكة لهم حقيقة ولهم أجسام نورانية، وهم قادرون على التشكل بالقدرة الإلهية، وأن كل حركة في هذا العالم وراءها ملائكة موكلة بذلك.

فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر أسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها، يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال، وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم فيجب أن نؤمن بهم بـ صورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم وأفعالهم في القرآن والسنة؛ فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى: { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـــٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ } [الانفطار: 9، 10]، وكما قال أيضًا: { لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ } [الرعد: 11]، وكما قال: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ } [الزخرف: 80]، وقد ورد في بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال – صاحب اليمين يكتب الحسنات، و صاحب الشمال يكتب السيئات– وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه –واحد من أمامه، وواحد من ورائه– فهو بين أربعة من الملائكة.

وروى الإمام مسلم والإمام أحمد –رحمهما الله تعالى–عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رســـول الله ﷺ: ((ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنّ، وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)). وقوله ﷺ: ((فأسلم)) وجّهها أهل العلم بالحديث أنها إما أن تكون من أسلم –أي: الجني– فصار من المسلمين، أو فأسلم، أي: أسلمت أنا من أذاه.

ونؤمن كذلك بملك الموت المُوَكّل بقبض أرواح العالمين، قال تعالى: { قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [السجدة: 11] ولم يُصرح القرآن باسمه، ولا الأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل، ونؤمن بحملة العرش الذين أخبر عنهم القرآن، فقال سبحانه: { وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ } [الحاقة: 17]، ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور، ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار – أعاذنا الله منها– وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، قال تعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ } [غافر: 49]، وقال تعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم: 6]، وقال أيضًا: { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ } [المدثر: من 30، 31].

ونؤمن أيضًا بالملائكة الموكلين بالجنان، الذين يهيّئون الضيافة لساكنيها من ملابس، ومآكل، ومشارب، ومصانع، وغير ذلك ممّا لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر– جعلنا الله وإياكم من أهلها، المتنعمين بهذه النعم فيها" انتهى كلامه –رحمه الله.

ويقول ابن أبي العز الحنفي –رحمه الله–:

"فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السموات بهم وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا، لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم؛ فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارةً يذكر حفّهم بالعرش... والتقريب والعلو، والطهارة والقوة والأخلاق، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَـٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَـٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَـٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ } [البقرة: 285]، { شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [آل عمران: 18]، { هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } [الأحزاب: 43] { ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ } [غافر: 7]، { وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ } [الزمر: 75]، { وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } [الأنبياء: 26]، { إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ } [الأعراف: 206] { فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ } [فصلت: 38]، { كِرَامًا كَـٰتِبِينَ } [الانفطار: 11] { يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ } [المطففين: 21] { كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ } [عبس: 16] { لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ } [الصافات: 8]، وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم؛ فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان" انتهى كلام ابن أبي العز –رحمه الله.

إذًا: يجب على المسلم أن يُؤمن بما ورد في حق الملائكة إجمالًا إيمانًا مجملًا، وما ورد في حقّهم تفصيلًا يجب الإيمان به إيمانًا مفصلًا، كما يتضح مما يأتي:

الإيمان بالملائكة على التفصيل:

أما الإيمان بالملائكة على جهة التفصيل، فنقصد به أنه يجب على المسلم الإيمان بوجود الملائكة الذين ورد ذكرهم في الكتاب العزيز، أو في سنة المصطفى ﷺ بالتفصيل الذي ورد عنهم؛ فيؤمن بأن المادة التي خُلقوا منها هي النور، وأنهم عباد مكرمون، طائعون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم مقربون؛ فمنهم حملة العرش، ومنهم الحافون به، ومنهم الملك الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام وهو أفضلهم وأشرفهم، ومنهم ملك الجبال والذي يسوق السحاب، و صاحب النبات و صاحب الأرزاق، والحفظة لبني آدم، وملائكة الجنة، وخزنة النار – أعاذنا الله منها– والملكان الموكلان بسؤال الميت في قبره، إلى غير ذلك من الملائكة، فيجب الإيمان بهم جميعًا على التفصيل الوارد عنهم، ومعرفة أسماء من ذكر اسمه منهم.

فالذي ورد لنا من أسماء الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإ سرافيل، وأما ملك الموت فلم يثبت في القرآن ولا في السنة الصحيحة تسميته -وقد جاءت في بعض الآثار تسميته بعزرائيل- وكذلك: هاروت، وماروت، ومنكر ونكير، ورضوان، ومالك -عليهم السلام جميعًا.

ويجب معرفة أصنافهم ووظائفهم؛ فقد جاء في النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف، كما ثبت أن لكل منهم وظائف وأعمالًا؛ فوظيفة الملائكة الأولى التي تقوم بها في الجملة: تسبيح الله تعالى، والتعبد له ليلًا ونهارًا من غير ملل ولا فتور.

وهناك أعمال ووظائف، وكّل الله بالقيام بها أنواعًا مخصوصة من الملائكة؛ فمنهم جبريل عليه السلام الأمين على وحي الله، يرسله به إلى الأنبياء والرسل، كما وكله بالهلكات إذا أراد الله أن يهلك قومًا، كما حصل في قصة قوم لوط؛ فورد في التفسير أنه رفع القرية على جناحيه حتى سمعت الملائكة صياح ديكة القرية، ثم جعل عاليها سافلها حتى لاقوا العذاب الأليم -والعياذ بالله- كما وكله بالنصر عند القتال، كما صرّح بذلك الإمام السيوطي -رحمه الله- في (الحبائك في أخبار الملائك)، ومنهم ميكائيل "ميكال عليه السلام " الموكل بالمطر، ونبات الأرض، وأرزاق العباد، ومنهم إسرافيل عليه السلام الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، وله أعوان من الملائكة، ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة، وكتابة أعمالهم مستقبلًا، وآجالها، وأرزاقها، وسعادتها، أو شقاوتها. ومنهم الملائكة الموكلون بحفظ بني آدم بأمر الله، وآخرون يحصون أعمالهم ويكتبونها. ومنهم الملكان الموكلان بسؤال الميت إذا وضع في قبره، ومنهم خزنة الجنة الذين يسلمون على أهلها، ومنهم خزنة جهنم المكلفون بها، وغير ذلك.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: "وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: { فَٱلْمُدَبِّرَتِ أَمْرًا } [النازعات: 5]، { فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا } [الذاريات: 4]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل.

وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تُدَبّر أمر النطفة حتى يتمّ خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل

بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشـــمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة.

فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفًا، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والملقيات ذكرًا، ومنهم: النازعات غرقًا، والناشطات نشطًا، والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا، ومنهم: الصافات صفًّا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا. ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفِرَق والطوائف والجماعات التي مفردها: فرقة، وطائفة، وجماعة.

ومنهم: ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس... إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذٌ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله الواحد القهار.

ومنهم الأملاك الثلاثة جبرائيل، وميكائيل، وإســـرافيل الموكلون بالحياة؛ فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده" انتهى كلامه.

التقيد بالنصوص في الكلام عن الملائكة:

إذا كانت أركان الإيمان الستة من أمور الغيب، التي يتوقّف في الكلام حولها على الدليل من الكتاب والســـنة، فإن الكلام عن الملائكة وحقيقتهم وعددهم وأسمائهم، والوظائف المنوطة بهم، والأعمال الموكلة إليهم؛ كل ذلك يجب التقيّد فيه بالكتاب والسنة.

وهذا هو الإيمان بالغيب الذي ميّز الله به المؤمنين عن الكافرين، كما قال تعالى: { الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ } [البقرة: 1-3]؛ ولهذا نهى الله ﷻ عن القول بغير علم ولا هدى من كتاب أو سنة، كما قال تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا } [الإسراء: 36].

الملائكة يصـــدق بوجودهم، وأنهم عباد لله مكرمون لا يســـبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، والله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشية الله مشفقون.

وجملة القول: أنه يجب الإيمان بكل ما ورد في شأن الملائكة -عليهم الـ سلام- مع التقيد في ذلك بما ورد في القرآن والسنة في شأنهم، بأن هذه المخلوقات مخلوقات غيبية، لا يستطيع العقل إدراك كنهها ولا تصورها، والذي عرفه عنها إنما عرفه عن طريق الوحي الذي جاء به المصطفى ﷺ فينبغي التقيد بذلك، وعدم إطلاق العنان بالتصـــورات الخاطئة، والخرافات والأوهام لتصورهم، وادّعاء رؤيتهم، ومخاطبتهم.

العنصر الثاني: الملائكة –عليهم السلام–: صفاتهم، أصنافهم، أعمالهم

1. بيان صفات الملائكة:

لقد ورد في القرآن الكريم تشبيه يوسف –على نبينا وعليه الصلاة والسلام– بالملائكة في الحُسْن، كما قال تعالى على لسان النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهنّ: { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف: 31]، كما ورد وصف جبريل عليه السلام بالقوة والأمانة في أداء الوحي إلى النبي ﷺ قال تعالى: { ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ } [التكوير: 20–24]. وقد ورد في صفة الملائكة أنهم أُولُو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما قال تعالى: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [فاطر: 1]. كما ثبت أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عليه السلام أن له ستمائة جناح؛ فقد أخرج السيوطي في (الحبائك) عن أبي الشيخ –رحمهما الله تعالى– عن ابن عباس { أن النبي ﷺ قال: ((جبريل له ستمائة جناح من لؤلؤ، قد نشرها مثل ريش الطواويس)) رواه السيوطي في (الحبائك).

وقد روى الإمام السيوطي –رحمه الله– أحاديث تُبيّن صفة جبريل عليه السلام :

منها: عن عائشة <، أن رسول الله ﷺ قال: "رأيت جبريل منهبطًا، قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلّق بها اللؤلؤ والياقوت".

ومنها: عن عائشة < قالت: قال رسول الله ﷺ لجبريل: "وَدِدْتُ لو رأيتك في صورتك، قال: وتحب ذلك؟ قال: نعم، قال: موعدك كذا وكذا من الليل ببقيع الغرقد. فلقيه موعده، فنشر جناحًا من أجنحته فسدّ أُفق السماء، حتى ما يُرى من السماء شيء". ومنها: عن ابن عباس عن ورقة الأنصاري قال: قلت: يا محمد، كيف يأتيك الذي يأتيك –يعني جبريل؟ قال: "يأتيني من السماء، جناحاه لؤلؤ، وباطن قدميه أخضر". ومنها: عن جابر قال: قال

رسول الله ﷺ: "إن لله ملائكةً ما بين شحمة أذن أحدهم إلى تَرْقُوته مسيرة سبعمائة عامٍ، بالطير السريع الطيران".

ومنها: عن يحيى بن أبي كثير قال: "خلق الله الملائكة صمدًا، ليس لهم أجواف".

ومنها: عن وهب بن منبه أنه سُـــئل عن خلق جبريل، فذكر أن ما بين منكبيه من ذي إلى ذي خفقُ الطير سبعمائة عام.

وبناءً على ذلك، فإن الخالق ﷻ لم يُخبرنا من صفاتهم الخِلْقِيّة إلا النزر القليل، فأخبرنا سبحانه أنهم خُلقوا قبل آدم؛ إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان ويجعله في الأرض، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 30].

وأما المادة التي خُلقوا منها فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور، فقد أخرج مسلم عن عائشة < أن رسول الله ﷺ قال: ((خُلقتِ الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم)).

وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانيّة، ليس لها جسم مادي يُدرك بالحواس الإنسانية، وأنهم ليسوا كالبشر؛ فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتزاوجون، مطهّرون من الشهوات الحيوانية، ومنزّهون عن الآثام والخطايا، ولا يتّصفون بشيء من الصفات المادية التي يتّصف بها ابن آدم، غير أن لهم القدرة على أن يتمثّلوا بصور البشر بإذن الله تعالى؛ كما أخبر الله ﷻ عن جبريل عليه السلام أنه جاء مريم في صورة بشريّة، فقال تعالى: { وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ } [مريم: 16، 17].

وفي حديث جبريل المشهور فيما جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأشراط الساعة –ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، وأنه جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، ثم شرع في السؤال.

ومن صـــفاتهم الخِلْقِيّة التي أخبرنا الله بها: أنه جعل لهم أجنحة يتفاوتون في أعدادها، فقال سبحانه: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [فاطر: 1]، وقد أخرج مسلم والبخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.

هذا ما أخبرنا به ربنا -تبارك وتعالى- عن هذه المخلوقات الكريمة من حيث خلقتها، ونؤمن بها كما جاءت ولا نسأل عن غيره، ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته، فهو اللطيف الرحيم بهم يُعلمهم الحق والخير.

2. ذكر أصناف الملائكة:

لقد وَرَدَ في القرآن الكريم ذكر الملائكة وأصنافهم وأعدادهم، والمتتبّع لتلك الآيات يجد أنهم موصُوفون بالكثرة؛ فمنهم الصّافات صفّا، ومنهم الزّاجرات زجرًا، ومنهم المرسلات عرفًا، وكل ذلك دليلٌ على أن الملائكة طوائف وجماعات، وأنهم سكّان السموات يتصفون بالقرب، مقرّبون طائعون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن البيت المعمور الذي في السماء يَطُوف به كل يوم سبعون ألف ملك لا يُعودون إليه آخر ما عليهم، وأنهم طوائف يجوبون الأرض، كلٌّ مُوَكَّل بوظيفة خاصـــة به، فكل حركة في هذا العالم وراءها ملائكة موكّلون بها، وهم كثيرون جدًّا.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

"وقد اشتملت أحاديث الباب على ذكر بعض من اشتُهر من الملائكة؛ كـ ـــ"جبريل" ووقع ذكره في أكثر أحاديثه، و"ميكائيل" وهو في حديث سمرة وحده، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، و"مالك" خازن النار، وملك الجبال، والملائكة الذين في كل سماء، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يدخلون البيت المعمور، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وَخَزَنَة الجنة، والملائكة الذين يَتَعَاقَبون، ووقع ذكر الملائكة على العموم في كونهم لا يدخلون بيتًا فيه تصاوير" انتهى كلامه.

3. أعمال الملائكة، ووظائفهم المنوطة بهم:

إن الملائكة الكِرَام مكلّفون بأعمال عديدة، ومنوطة بهم وظائف متنوعة؛ فمنهم المُوَكَّل بالوحي، والمُوكل بالقطر والنبات، ومنهم المُوكّل بالنفخ في الصور، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، والملكان الموكلان ببني آدم يكتبان الحسنات والسيئات، ومنهم الملكان الموكّلان بسؤال الميت إذا وُضع في قبره، ومنهم خزنة جهنم، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يَتَعَاقَبُون في بني آدم، وملائكة الليل وملائكة النهار، وملك الموت وأعوانه، وملك مُوَكّل بالشمس، وملك مُوَكّل بالقمر؛ إلى غير ذلك من الأعمال التي يُرسل الله تعالى بها ملائكة معينين، حتى قيل: إن كل حركة في العالم وراءها ملك مُوَكَّل بها.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: { فَالْمُدَبِّرَتِ أَمْرًا } [النازعات: 5]، { فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا } [الذاريات: 4]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل.

وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تُدَبّر أمر النطفة حتى يتمّ خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة.

فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفًا، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقًا، والملقيات ذكرًا، ومنهم: النازعات غرقًا، والناشطات نشطًا، والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقًا، ومنهم: الصافات صفًّا، فالزاجرات زجرًا، فالتاليات ذكرًا" انتهى كلامه.

ويتّضح من هذا أن تعدّد الملائكة بتعدّد الأعمال المنوطة بهم؛ لتيسير شئون هذا الكون، والله غنيّ عن الملائكة وعن غيرهم من المخلوقات؛ لكنه سبحانه بحكمته البالغة، وقدرته ومشيئته

النافذة جعل هذه المخلوقات النورانية هي التي تُ سيّر شئون كثير من هذا الكون، وقد ورد أن الله ﷻ وَكّل بالإن سان ملائكة يحر سونه ويحفظونه، لا يتركونه حتى في حالة النوم، وفي حالة اليقظة يراقبو نه ويحفظو نه حتى إذا جاء قدر الله خلّوا بينهم وبينه، وورد أن الملائكة الذين يحفظون الإنسان يُتابعونه حتى يُحشر، ثم يُتابعونه حتى يصل إلى منازله؛ منازل الجنان، أو منازل النيران.

ونقل الإمام السيوطي عن أبي الحسن الهروي –رحمهما الله تعالى– قوله من أرجوزته المسماة "الجواهر المضيئة"، وهو يتكلم عن الملائكة:

القول بالملا ئك الكرام * فريـ ضة لـ صحة الإ سلام
وهم عـباد ا لخالق القـهار * قد خُلقوا من خالص
فمنهم كا تبُ أعـ مال * ومنهم حافظُ سكان الثرى
ومنهم مُوَكـّل بالرزق * يو صل أو يزوى بأمر الحق

4. مَن سُمِّي لنا من الملائكة في القرآن الكريم:

لقد ورد ذكر أسماء بعض الملائكة الكرام في القرآن الكريم؛ كجبريل وميكائيل –عليهما السلام، فيجب الإيمان بالملائكة التي وردت أسماؤهم في الكتاب، أو السنة بالتفصيل، ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم، قال تعالى: { قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ } [البقرة: 97، 98].

وقد أثنى الله ﷻ على جبريل في القرآن الكريم أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات، ومن ذلك قوله تعالى: { فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ } [التكوير: 15– 21]، وقال تعالى في وصفه أيضًا: { عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ } [النجم: 5، 6].

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وأما إسرافيل فهو الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن خازن النار، قال تعالى: { وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ } [الزخرف: 77].

فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر أسمائهم في أحاديثَ ثبتت صحتها -يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال" انتهى كلامه.

ويقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"ومنهم -أي: الملائكة- الأَمْلَاكُ الثلاثة -جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل- الموكلون بالحياة؛ فجبرائيل موكلٌ بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكلٌ بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكلٌ بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر" انتهى كلامه -رحمه الله.

لكن الذي ورد ذكره كثيرًا في القرآن الكريم هو الملك جبريل عليه السلام ، فمن ذلك قول الله تعالى مخاطبًا عيسى -على نبينا وعليه السلام-: { إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [المائدة: 110]، وقال تعالى أيضًا: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } [البقرة: 87]، وروح القدس في الآيتين المراد به جبريل عليه السلام .

كما ورد ذكر جبريل عليه السلام كذلك في القرآن الكريم، في شأن نزوله على خاتم النبيين محمد ﷺ؛ فمن ذلك قول الله تعالى: { قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: 102].

والمقصـــود أن ذكر جبريل عليه السلام في القرآن الكريم كثير؛ لأنه هو الواســـطة بين الله تعالى وخاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ؛ ولهذا كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول:

وجبريل أمين الله فينا * وروح القدس ليس له

ومن الملائكة الذين ذكروا في القرآن الكريم: مَالِكٌ عليه السلام خازن النار، قال تعالى: { وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ } [الزخرف: 77].

ومنهم: ملك الموت الذي لم يرد اسمه صريحًا لا في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، لكن ورد في بعض الآثار تسميته بعزرائيل، قال الله تعالى: { قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [السجدة: 11].

ومن الملائكة المذكورين في القرآن الكريم: هاروت وماروت في قصة تعلم أهل بابل للسحر، قال الله تعالى: { وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ } [البقرة: 102].

وذكر ابن كثير –رحمه الله– أن هذين الملكين أرســـلهما الله فتنة لأهل بابل، وما قيل في قصتهما مع المرأة التي علماها اسم الله الأعظم هو من قبيل الإسرائيليات.

5. حكم إنكار وجود الملائكة، أو تأوّل وجودهم بأخيلة القوى العقلية والنفسية:

أ. إثبات وجود الملائكة، وأنهم أجسام قادرون على التشكل:

إن المادة التي خَلَقَ اللهُ منها الملائكة هي النور؛ وذلك لما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم)) أي: من الطين. رواه الإمام مسلم -رَحِمَهُ اللهُ.

ولما خلق الله تعالى الملائكة من هذه المادة النورانية، جعلهم قادرين على التشكل على أشكال مختلفة، وهيئات متعددة، وصور عجيبة؛ لكي يسهل انتقالهم من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن هيئةٍ إلى هيئة؛ فمن ذلك أن جبريل عليه السلام ثبت أنه تبَدَّى للنبي ﷺ وله ستمائة جناح، سادًّا الأفق.

وكذلك ورد في القرآن الكريم أن الملائكة رسل الله تعالى، خلقهم بأجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما قال تعالى: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [فاطر: 1].

ومن الصفات العجيبة التي تبين التشكل، الذي تظهر به الملائكة قول الله تعالى مبينًا غلظة وشدة ملائكة النار: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم: 6].

ومن الهيئات التي تبين التشكل الذي يجوز للملائكة، كما أنه دليل على إثبات وجودهم، ما ثبت من أن المَلَكَ يظهر على هيئة رجل؛ حيث ثبت ظهور جبريل عليه السلام لمريم ابنة عمران -عليها السلام- في صورة رجل، كما قال تعالى: { وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ } [مريم: 16، 17].

وكذلك ثبت في قصة الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم ولوط -على نبينا وعليهما السلام- وهم المعروفون بضيف إبراهيم، فقدم إليهم إبراهيم القِرَى ظانًّا أنهم بشر ليأكلوا منه، قال تعالى: { وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ } [العنكبوت: 31، 33]، فبين الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل ملائكةً تشكّلوا على هيئةِ رجال، وبعثهم إلى إبراهيم ولوط -عَلَى نَبينَا وعَلَيْهما السَّلامُ- وأخبروهما بأنهم مكلفون من قِبَلِ الله بإهلاك قوميهما، بعد أن ينجياهما وأهلهما إلا امرأة لوط المتمالئة مع قومها.

وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية، وأنهم ليسوا كالبشر؛ فلا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون ولا يتزاوجون، مُطَهَّرونَ من الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، ولا يتصفون بشيءٍ من الصفات المادية التي يتصف بها ابن آدم.

ويقول سيد سابق -رحمه الله-:

"وهم -أي الملائكة- يتفاوتون في الخلق، كما يتفاوتون في الأقدار تفاوتًا لا يعلمه إلا الله: { **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** } [فاطر: 1] أي: إن الله جعل الملائكة أصحابَ أجنحةٍ؛ فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من يزيد على ذلك، وهذا مظهر التفاوت في الأقدار عند الله، والقدرة على الانتقال.

روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. وكثرة الأجنحة دليلُ القدرةِ على السرعة في تنفيذ أوامر الله، وتبليغ رسالته: { **وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾** } [الصافات: 164-166] قال ابن كثير: ما من ملك إلا له موضع مخصوص في السموات ومقامات العباد، لا يتجاوزه ولا يتعداه" انتهى كلامه -رحمه الله.

وأما مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ في صورةِ رجلٍ، والتشكلِ بهيئةٍ أخرى فكثير جدًّا؛ وعليه فقد كان نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ على أشكالٍ:

أولًا: من تلك الأشكال أنه كان يأتيه على صورة غير مرئية، ويقع كلامه على قلب النبي ﷺ فيعي المصطفى ﷺ ما يقول جبريل، ولا يرى الصحابة } جبريل والحالة هذه.

ثانيًا: وقد يراه على صورته التي خُلق عليها؛ فقد ثبت أنه ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة < أنها قالت: "إن النبي ﷺ لم يَرَ جبريل في صورته التي خلق عليها إلا مرتين: مرةً عند سدرة المنتهى، ومرة في أزاد له ستمائة جناح، قد سد الأفق". وأزاد أو زياد: وادٍ في مكة.

ثالثًا: وقد يتمثل جبريل للنبي ﷺ في صـــورة رجل فيكلِّمه بالوحي، ومن ذلك تمثل جبريل عليه السلام في صـــورة الصـــحابي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، وكان معروفًا بجماله؛ فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر {قال: كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية.

وقد يأتيه على صورةٍ غيرِ معروفةٍ كرجلٍ من الأعراب، كما ثبت في (صحيح م سلم) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه...)) الحديث.

وســـاق عمر رضي الله عنه الحديث، إلى أن قال في آخره: ثم انطلق فلبثت مليًّا، ثم قال لي -أي النبي ﷺ: ((يا عمر، أتدري من ال سائل؟)) قلت: الله ور سوله أعلم، قال: ((فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)) انتهى.

وبهذه الأشكال الثلاثة ثبت نزولُ جبريل عليه السلام عَلَى خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ، وفي ذلك دليل وا ضح على وجود الملائكة، وأنهم أجـ سام قائمة، وأنهم يتـ شكلون على هيئات مختلفة ويجيئون على صور متعددة - سلام الله عليهم أجمعين.

ب. من الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة؟

إذا بحثنا عن الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة -عَلَيْهِم السَّـــلامُ- وكفرت بهم، و لم تؤمن بوجودهم ولا بالأعمال المنوطة بهم؛ وجدنا أهل العلم يذكرون أنهم طائفة الفلاسفة، التي لا تؤمن بهذه المخلوقات النورانية العجيبة التي ورد ذكرها في القرآن، وتعتبر ركيزةً مهمةً من ركائزِ الإيمانِ في الدين الإســـلامي، بل إنَّ من لم يؤمن بوجودهم فلا إيمان له؛ لذلك كان الفلا سفة، ومن شاكلهم في تكذيب الآيات والأحاديث التي تطفح بذكر الملائكة -عَلَيْهِم الـ سَّلامُ- كافرين؛ سواء منهم من كذب بوجودهم وأنكرهم، أو من ادعى أنهم عبارة عن العقول والنفوس، أو أنهم هذه الكواكب السيارات.

يقول الشيخ ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-:

"فهذه الأ صول التي اتفقت عليها الأنبياء والر سل - صلوات الله عليهم و سلامه- و لم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الر سل، وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلا سفة، وأهل

البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها؛ وأعظم الناس لها إنكارًا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء.

فإنَّ من علم حقيقة قولهم؛ علم أنهم لم يؤمنوا بالله، ولا رسله، ولا كتبه، ولا ملائكته، ولا باليوم الآخر؛ فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي...

إلى أن يقول: وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: { فَالْمُدَبِّرَتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ } [النازعات: 5]، { فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا } [الذاريات:4] وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل؛ وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم" انتهى كلامه.

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

"قال جمهور أهل الكلام من المسلمين: الملائكة أجسام لطيفة، أُعْطِيَتْ قدرةً على التشكلِ بأشكالٍ مختلفةٍ، ومسكنها السموات، وأبطل من قال: إنها الكواكب، أو إنها الأنفس الخيرة التي فارقَت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها" انتهى كلامه.

وبهذا يتضح أن الطائفة التي أنكرت وجود الملائكة، أو أَوَّلْت وجودهم بالعقول والنفوس، أو الكواكب هم الفلاسفة، والدهريون كما يوجد في كلام بعض الماجنين المستهزئين ببعض شعائر الدين.

ج. الرد على من قال: إن الملائكة عبارة عن العقول والنفوس، أو الكواكب:

لا شك أن من ادعى أن الملائكة -عَلَيْهِم السَّلامُ- عبارة عن العقول والنفوس أو الكواكب، لا دليلَ لهم على ما ادعوه؛ بل إن الأدلة القرآنية والنبوية مستفيضة في التأكيد على وجود الملائكة، وأنهم حقيقة، ولهم أسماء وأعمال ووظائف، وأنهم كثيرون جدًّا.

وأما من ادعى أنهم عبارة عن هذه الكواكب العلوية السيارة، فنقول لهم: إن هذه الكواكب العلوية ما هي إلا أجرام فضائية، تسير بأمر الله ﷻ وتدبيره وتقديره.

وإنها آيات كونية من آيات الله ﷻ لا تضـــر ولا تنفع، وليس لها من خصـــائص الألوهية شيء، وإنما هي كواكب سيارة مثل كوكب الأرض الذي نعيش عليه.

وقد أثبتت الدراسات الكونية المعاصرة أن هذه الكواكب تحمل خصائص كوكب الأرض، فمن زعم أنها تتوسط له عند الله ﷻ حال الدعاء والتضرع والرجاء؛ فقد كذب على الله ﷻ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الرد على الفلاسفة المنكرين للملائكة:

"قيل لهم: أما إثباتكم أن في السماء أرواحًا فهذا يشبه ما في القرآن وغيره من كتب الله؛ ولكن ليست هي الملائكة كما يقول الذين يزعمون منكم أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول، وما أنزل من قبله، ويقولون: ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة والفلسفة.

فإن قالوا: العقول والنفوس عند الفلاســـفة هي الملائكة عند الأنبياء، وليس كذلك، لكن تشبهها من بعض الوجوه؛ فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله، كما قال تعالى { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [فاطر: 1] وكما قال: { جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا } فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به الســـموات والأرض، كما قال تعالى: { وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } [الأنعام: 61] وكما قال تعالى { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: 80]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة؛ فإنه قال: { يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ } [النحل: 2]، وأمثال هذه النصوص التي يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم، ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس، أو أن يكون جبريل هو العقل الفعّال والقوى الصالحة، والشياطين هي القوة الفاسدة -كما يزعم هؤلاء.

وأيضًا، فزعمهم أن العقول والنفوس التي جعلوها الملائكة، وزعموا أنها معلولة عن الله، صادرة عن ذاته صدورَ المعلول عن علته –هو قول بتولدها عن الله، وأن الله ولد الملائكة؛ وهذا مما رده الله ونزه نفسه وكذب قائله، وبين كَذِبَهُ بقوله: { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ } [الإخلاص: 3، 4] وقال تعالى: { أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ } [الصافات: 151–157] وبقوله: { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام: 100] وقوله { وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ } [الأنبياء: 26–28] وقال تعالى: { لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } [النساء: 172]" انتهى كلامه.

فتبين بهذا أن الملائكة –عَلَيْهِم السَّلامُ– مخلوقات قائمة حقيقية، وأنهم أجسام نورانية تتشكل حسب المشيئة الإلهية، وليسوا عبارةً عن العقول والنفوس أو الكواكب –كما يزعمه هؤلاء الفلاسفة والصابئون، ومن سلك مسلكهم.

الدرس الثاني: الإيمان بالكتب السماوية

عناصر الدرس

العنصر الأول: حاجة الناس إلى الكتب السماوية

العنصر الثاني: أدلة وجوب الإيمان بالكتب السماوية

العنصر الأول: حاجة الناس إلى الكتب السماوية

1. بيان أن الله تعالى أنزل الكتب تأييدًا لرسله، وهدًى للعالمين:

أولًا: حاجة الناس إلى الرسالة السماوية:

الوحي هو النور الذي يُ ضيء سماء الدنيا حينما ت شرق الر سالة ا سماوية، وتنبع حاجة الإن سان إلى بعثة الر سل من طبيعته ا بشرية التي فُطر عليها؛ لأن هذا الإن سان من أعظم المخلوقات شأنًا، فقد رزقه الله قوةً عقلية ميَّزته عن سائر المخلوقات الأر ضية، ومكّنته من تسخير الحيوان، وتشكيل الجماد في معظم الأحيان حيث يشاء؛ إلا أن قدرات هذا الإنسان محدودة النطاق، وتوجيهها نحو الاتجاه الســـليم -الذي يرضـــاه رب الســـموات والأرض والآفاق- لا يتأتَّى إلا بتوجيهٍ من الر سل، الذين يبعثهم الله وا سطةً بينه وبين هذا الإن سان؛ ليوقظوه بالر سالة ا سماوية من وَحَل الوثنيَّات التي سقَطَ فيها كثير من الأمم قبل بزوغ شمس الرسالة الإلهية، وليأخذوا بيدِه إلى الصراط المستقيم، ويعرِّفوه كيف يعبد خالقه العبادة الحقَّة ا صحيحة؛ فتُ صبح لقُدراته التي وهبه الله تعالى مع توجيه الر سل نتائجها ا سليمة لما أراده اللهُ من كرامة العاقل، وت شريف أفعاله، وا ستقامة أحواله، وانتظام م صالِحِه حين هيئه للحكمة، وطبعه على المعرفة؛ ليَجعَله حكيمًا و بالعواقب عليمًا. لأن الناس بنظرهم لا يُدركون م صالحهم بأنف سهم، ولا ي شعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم دون أن تَرِد عليهم آداب المر سلين وأخبار القرون الما ضين، فتكون آداب الله فيهم م ستعملة، وحدوده فيهم متَّبعة، وأوامره فيهم ممتثلة، ووعده ووعيده فيهم زاجرًا، وق صص من غبر من الأمم واعظًا؛ فإن الأخبار العجيبة إذا طَرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان -اســـتمدتها العقول، فزاد علمها وصـــحّ فهمها، وأكثرُ الناس سماعًا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرًا، وأكثرهم تفكُّرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أكثرهم عملًا، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدِل، ولا منهم في انتظام الحق بدل.

ومن هنا يظهر بجلاء حاجة الناس إلى الر سالة ا سماوية، وتتلخص تلك الحاجة في النقاط التالية:

أ. تحقيق عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص العمل له:

لما كان الغرض من خلق الإنسان والجانّ، وتسخير جنس الحيوان، وإبداع السموات والأرض والأكوان –هو عبادة الله تعالى وحده، ومعرفته بأسمائه و صفاته، كما قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات: 65]، والحذر من الوقوع في الـ شرك والبدع، كما قال سبحانه: { وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا } [النـ ساء: 36]، ولما كان العقل البـ شري قا صرًا في ماهيته وحقيقته –إذ لا يتمكّن بدون الر سالة الـ سماوية من عبادة الله تعالى، على الوجه الذي يُحبه وير ضاه– فإن هذا الغرض النبيل.

وهذه الغاية الـ سامية لا تتم ولا تحـ صل إلا بالر سالة الإلهية، وذلك بإر سال و سائط من الله تعالى إلى خلقه؛ فكان من حكمة الله ورحمته أن أنزل كتبًا، وأرسل رسلًا مبشرين ومنذرين، واتفقت كلمتهم أجمعين على أمر أممهم بعبادة الله تعالى وحده، والكفر بعبادة ما سواه من مظاهر الكون التي وقع فيها الإنـ سان حينما غابت عنه شمس الر سالة، قال الله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ } [النحل: 36].

وقد حققت الر سالة المحمدية –وهي خاتمة الر سالات– هذه الغاية السامية، حينما دعت إلى تحرير الإنـ سان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى سعة الإ سلام ورحمته.

إذًا: كانت هذه الكتب السماوية توضِّح حاجة الناس إلى كيفية عبادة الله تعالى وحده على الوجه المطلوب؛ لأنه بدون هذا النور والوحي الذي يأتي به الر سل والأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– من لدن أولهم آدم إلى آخرهم خاتم النبيين محمد –صلوات الله و سلامه عليه وعليهم أجمعين– هذا النور وهذا الوحي الذي يتمثل في الر سالات السماوية، لولاه لما عبدَ الإنـ سان خالقه العبادة الـ صحيحة وفق الـ شرع الذي يقبله الله ﷻ؛ ولذلك

نُدرك أن الأمم والعصور التي غرَبت عنها شمس الرسالة الإلهية ظهرت فيها طقوسٌ و صور من العبادات المرفوضة، والتي ظنّ أصحابها أنهم يعبدون الله تعالى حق عبادته؛ ولذلك لما بزغت شمسُ الرسالة الإسلامية في مجتمع مكة ظهرت في مجتمعٍ يعبد الأوثان، فكانت تلك الأوثان تُعبَدُ عبادةً يظن عابدوها أنهم يتقربون بها إلى الله ﷻ، بحيث يقولون: {لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ }.

ومن ثَمّ عبدوا الأحجار، والأخشابَ، والأشجارَ، وحتى التمر، كما يُروى عن أبي حفصٍ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في حاضر الإسلام، أنه تذكر يومًا من أيام الجاهلية فضحك، فقال رضي الله عنه: "إنه كان في ليلةٍ من الليالي يعبد صنمًا صنعه من التمر، فكان إذا جاع أكله".

فهذا يدل على أنه بدون شمس الرسالة السماوية، وبدون نور الوحي الذي يأتي به الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم– لا يعبد الناس ربهم عبادةً صحيحة، فكان مما يبين حاجة الناس إلى الرسالة السماوية هو كونهم يعبدون الله سبحانه وتعالى حق عبادته، ويخلصون له العبادات جميعها عكس الأمم التي لم يأتِها نذير، ولم تستضئ بنور الوحي؛ فإنها تعيش في جهالات وتصوُّرات بعيدة عن الحق المطلوب، فيتفشَّى الشرك، وتظهر البدع، ويبعد الناس عن دين الله سبحانه وتعالى.

ب. إقامة الحجة على الخلائق:

فالله سبحانه وتعالى حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها، عليمٌ بأحوال عباده، فلو لم يبعث الرسل واسطةً، ويُنزل الشرائع في الكتب، توضِّح المحجة والصراط المستقيم، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهة – لَحَسبَت الأمم أن لها بين يدي حساب الله حجةً سائغة ومعذرةً مقبولة، قال الله تعالى: { وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ } [طه: 134].

ولقد قطعَ الله هذه الشبهة من أساسِها، بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء، من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد –عليهم الصلاة والسلام– قال تعالى: { رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 165].

كذلك قضى الله –وهو أحكم الحاكمين– ألّا يعذب أمةً لم تشرق عليها شمس الرسالة، قال تعالى: { مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: 15]. فمن حكمة الله تعالى وعدالته ورحمته ألّا يعذِّب أحدًا من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وإرسال الرسل إليه، وقيام الحجة عليه.

إذًا: من هذه الحكم والتي تبيِّن حاجة الناس إلى الرسالات السماوية إقامة الحجة؛ لأنه لا أحد أعذر من الله، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة؛ لذلك قضى الله ﷻ بألّا تعذيب على من لم تبلغه الرسالة؛ أي: إن الله ﷻ أولًا يبعث رسله مبشرين ومنذرين، يبينون للناس طريق الخير وطريق الشر فبهذه التعاليم السماوية، وبنور الوحي الذي يوضِّحه الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– لأممهم تزول الشبهات، وتقوم عليهم الحجة التي لا يُعذَرون بعدها، لذلك ورد في الحديث: ((أن أربعةً يُبعثون يوم القيامة، فيرسل الله إليهم رسولًا))، واختُلف في هذا الرسول وهؤلاء الأربعة، مع أن يوم القيامة يوم حساب وجزاء وليس يوم عمل.

هؤلاء الأربعة هم: الصغير الذي مات صغيرًا قبل الحلم، والمجنون الذي مات مجنونًا لا يعقل، والشيخ الهرم الذي لا يدرك.

ومن مات في الفترة –أي: في فترة بين رسولين؛ فلم يلحق برسالة الأول، ولم تبلغه رسالة الثاني– هؤلاء الأربع يعذر الله إليهم، فيرسل إليهم رسولًا، فورد أن الله ﷻ يبعث إليهم نارًا، فيقول لهم: ((رِدُوها)) أي: ادخلوها، فإن دَخلوها وامتثلوا الأوامر كانت عليهم بردًا وسلامًا، فيكونون ناجحين في الامتحان.

ومن رفضها منهم فإنه يدخل النار، فهذا لابتلاء وامتحان هؤلاء الأربعة؛ لأنه لم تبلغهم الرسالة.

أما الصبي، فيقول: يا رب، أنا متّ ولم أبلغ الحلم، وأما المجنون فيقول: يا رب بعثتَ إليّ نبيًّا والناس يرمونني بالبعر، وأما الشيخ الهرم فيقول: يا رب، بعثت رسولًا، ولكني لا أعقل، والذي مات في الفترة يقول: يا رب متُّ، ولم تبعث إليَّ بشيرًا ولا نذيرًا.

أما إذا بعث الله ﷻ ر سولًا وأنزل عليه كتابه، وو ضح الر سول هذا الكتاب وهذا الوحي للأمة؛ عندها تقوم الحجة وتزول الشـــبهة، و لم تبقَ هناك معذرةً يعتذر بها الناس بين يدي حساب رب العالمين.

جـــــــ. تعريف الناس بالعالم الغيبي وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيرانه:

تظل العقول والأفهام في درك القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب –حتى تأتيها رســـالة الله، تدعوها للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر، وترســـيخ عقيدة القضـــاء والقدر، والإيمان بحقيقة الجنة والنار، والوقوف بين يدي العزيز الجبار؛ لتُناقش على ما اكتسبت من خير أو شرٍّ.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– أن من حكمة الله في إرسال الرسل، أن رسولنا ووا سطتنا محمدًا ﷺ عرّفنا أسماء الله تعالى و صفاته، وما يـ ستحقه من الأسماء الحـ سنى والصفات العلا؛ تارة بما يُوضِّحه من ضرب الأمثال التي هي مقاييس عقلية، وتارة بما يخبرنا به من الأنباء الصادقة النبوية، وتارة بما يقُصّه علينا من قصص الأنبياء الذين هم خير البرية، وبه عرفنا الملائكة، والنبيين، والجنة، والنار، وأخبار الماضـــين، وأحداث الدنيا وملاحمها وفتنها، وأ شراط الـ ساعة وعلاماتها، وأخبار القيامة وتفا صيلها، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية.

ويقول ابن أبي العز الحنفي –رحمه الله–:

"فمن المحال أن تـ ستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفـ صيل، فاقتـ ضت رحمة العزيز الرحيم أن بعثَ الرسل به معرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشِّرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة ر سالتهم معرفة المعبود – سبحانه– بأسمائه و صفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها" انتهى كلامه.

د. توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم، في دينهم ودنياهم:

لأن البشر مهما أُوتوا من الفهم والعقل والذكاء، لا يتأتى لعقولهم أن تستقل بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها، كأمةٍ متماسكة متكافئة؛ وإنما الشريعة الإلهية بما اشتملت عليه من معاملاتٍ وأخلاق وعقوبات تستطيع أن تبيِّن للناس الحق من الباطل والخير من الشر؛ لأن هذا هو المنهج الرباني الذي وضعه خالق البشر العليم بمصالحهم، وتطبيق رسالة الله يهيّئ النفس الإنسانية أن تصفو من الكدر وفساد الأعمال، وأن تتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي السليم، وتطمئن إلى صلاح أمورها الدينية والدنيوية.

ثانيًا: الحكمة من إنزال الكتب السماوية:

الرسالة السماوية أو النبوة: هي خبرٌ خاص يكرم الله ﷻ به أحدًا من عباده، فيميزه بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمرٍ ونهي، ووعظ وإرشاد، ووعد ووعيد.

قال الإمام الماوردي -رحمه الله- في تعريفه للرســـالة أو النبوة مبينًا منزلتها العالية، ومقامها الرفيع:

"لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق؛ فكان أفضل الخلق بها أخص، وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس" انتهى.

وعرّف الفيروزآبادي -رحمه الله- الرسالة بقوله:

"النبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول؛ لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم" انتهى.

إذا تبين معنى الرسالة السماوية -أو النبوة كما تُوصف أيضًا- فنقول: إن الحكمة من إنزالها على الرسول الواسطة الذي ينشرها في قومه، تكمُن في كونها تأييدًا للرسول الذي أُنزلت عليه، وهي محضُ فضلٍ من الله تعالى للرسول المصطفى الذي يؤيده الله بهذه الرسالة.

إذًا: النبوة فضل من الله، ورحمة، وموهبة، ونعمة، يمنّ الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه ممن أكرمه بالنبوة، فلا يبلُغها مجتهد بعمله، ولا يســـتحقها عاقلٌ بكســـبه، ولا ينالها باستعداد ولايته، بل يخص المولى ﷻ بها من يشاء من عباده المصطفين.

يقول السفاريني –رحمه الله–: "إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع مِنَّة من الله تعالى وفضل، لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللُّطف بالخلق والفضل عليهم، فبعثُه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد –صلى الله عليهم وسلم أجمعين– إلى المكلفين لطفٌ من الله بهم؛ ليبلغوهم عنه – سبحانه– أمره ونهيه ووعده ووعيده، ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد، مما جاءوا به من شـــرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم؛ اختصاصًا كالقرآن العظيم، واشتراكًا كالتوراة لموسى وهارون ويوشع، ومَن بعدهم إلى عيسى –عليه وعليهم السلام– حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات، وينقطع عنهم سائر التعللات.

فلولا إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل، وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوي النبوة والفضل –لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة" انتهى كلامه.

والرسالة الإلهية تأييدٌ من الله تعالى لرسوله، الذي يبعثه إلى الناس واسطة بينهم وبين الله تعالى؛ حيث يردّ بها على الشـــبهات التي يوجِّهها الأمم إلى أنبيائهم، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } [الفرقان: 33].

وقد أيّد الله تعالى أنبياءه ورسله بالكتب المنزّلة عليهم، فأيّد داود عليه السلام بالزبور، قال تعالى: { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا } [الإسراء: 55]، وأيد إبراهيم وموسى –عليهما السلام– بالصحف، كما قال تعالى: { إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾} [الأعلى: 18، 19]، وأيّد عيسى عليه السلام بالإنجيل، فقال تعالى: { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ } [الحديد: 27] كما وصف الله تعالى الإنجيل بالبيِّنات فقال: { وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ } [البقرة: 253]، وقال تعالى واصفًا التوراة التي أيد بها كليمه موســـى عليه السلام بأن فيها حكم الله: { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: 43]، وأما عن تأييد الله تعالى لخاتم النبيين ﷺ بالقرآن فذلك أمر لا يحتاج إلى دليل؛ إذ القرآن كله تأييدٌ وتثبيتٌ للمصطفى ﷺ، ومن

أدلته قوله تعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا } [الفرقان: 32].

والمقصود أن هذه الكتب السماوية أيّد الله تعالى بها رسله، وبيّن لهم فيها كل شيء يحتاجون إليه في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث اشتملت هذه الكتب على أمور العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، وكانت هذه الكتب متفقة في الأصل الذي أجمعت عليه، وهو التوحيد؛ أي: الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك.

أما فيما يتعلق بالفروع وهي العبادات والمعاملات والأخلاق والمنهج، فكانت تلك الرسالات تختلف من رسالة إلى أخرى، حتى جاءت خاتمة الرسالات وهي الرسالة المحمدية، فهيمنت على جميع الرسالات السماوية السابقة.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله-:

"جمع الله فيها محاسن ما قبلها من الرسالات، وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها؛ فلهذا جعلها الله شاهدةً، وأمينةً، وحاكمةً على الرسالات كلها" انتهى كلامه.

إذًا: جاءت الرسالات الإلهية مؤيدة للمرسلين، وهداية للأمم المخاطبين، ونورًا وهدى للعالمين.

ثالثًا: الكتب السماوية مصابيح تضيء للناس حياتهم:

ما من شك في أن الكتب السماوية هي التي تضيء للناس حياتهم؛ لأنهم بدونها يعيشون حياةً بهيميةً؛ لأن العالم يظل في ظلام دامس حتى تشرق عليه شمس الرسالة السماوية، فتضيء للناس حياتهم؛ لأن تعاليم الرسالة السماوية مُنزّلة من خالق البشر الخبير بأحوالهم، العليم بشئونهم، فما فيه صلاحهم يبينه لهم ويدلهم عليه ويأمرهم به، وما فيه شرهم وفساد أمرهم يوضّحه لهم وينهاهم عنه، فبيّنت لهم رسالةُ الله النجدين -طريقي الخير والشر- وذلك عن طريق الوحي الإلهي الوارد في تلك الرسالات، سواء المتعلق منه بالجانب العقدي، أو الجانب الفقهي العملي، أو السلوكي، أو الأخلاقي.

عمومًا، قد جاءت الرسالات السماوية بكل خير يضيء للناس حياتهم، ونهت عن كل شرٍّ يؤلب على الناس دنياهم، فالرسالة السماوية ضرورية للعباد في معاشهم ومعادهم، ولا غنى لهم عنها مهما أُوتوا من العقول السليمة، والقوانين المدنية والوضعية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

"الرسالة ضرورية للعباد ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: { أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ } [الأنعام: 122]، فهذا وصف المؤمن كان ميّتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بنور الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر" انتهى.

كما بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أيضًا أن الإنسان في حاجة إلى الرسالة السماوية، ليس لإصلاح آخرته والتزوُّد لها فحسب؛ وإنما هو محتاجٌ لها أيضًا لإصلاح معاشه وجميع شئونه في دنياه، وأن تمييز الإنسان بين النافع والضارّ بعقله لا يكفي لتسيير شئونه في حياته كلها؛ فإن هذا القدر من التمييز تشترك فيه معه العجماوات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

"الرسالة ضرورية للعباد، الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فالإنسان مضطرّ إلى الشرع؛ فإنه بين حركتين: حركةٍ يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه،

وعدله بين عباده، وحصنه الذي مَن دخله كان آمنًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس.

فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم؛ فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والصـــدق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته" انتهى كلامه.

2. الكتب السماوية سعادة للبشرية، وهي حق وصدق:

أولًا: اشتمال الكتب السماوية على سعادة الناس، في الدنيا والآخرة:

يجب الإيمان الجازم بأن الله تعالى أرسل رسلًا إلى الناس يبشرونهم وينذرونهم، وأنه أنزل على هؤلاء الأنبياء والرسل كتبًا عن طريق الوحي؛ تُبين للناس ما نزل إليهم، وتشتمل على العقائد والشرائع والأخلاق والمعاملات، بل وتشتمل على كل ما يصلح معاشهم ومعادهم، وقد ذكرت تلك الكتب والرسالات كلَّ خيرٍ ورغبت الناس فيه، كما ذكرت كلَّ شرٍّ وحذرت الناس منه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء، وبعثت به جميع الرسل المرسلة، فالرسالة ضروريةٌ في صلاحِ العبدِ، في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة.

فالإنسان مضطرٌّ إلى الشرع، فإنه بين حركتين؛ حركةٍ يجلب بها ما ينفعه، وحركةٍ يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس، فإن ذلك يحصـــل للحيوانات العجم؛ فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشـــعير

والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضرُّ فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد" انتهى كلامه –رحمه الله.

والكتب السماوية أُنْزِلَت؛ لتأخذ بأيدي الأمم إلى الطريق المستقيم، وتُوقظهم من مهالك الشرك وسيطرة الخرافة، ولتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتبين لهم كلَّ طرقِ السعادة التي يطلبها الناس قديمًا وحديثًا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

يقول صاحب (مباحث في علوم القرآن):

"من فضلِ اللهِ على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرةٍ سليمةٍ، تَقُودُهُ إلى الخير وترشده إلى البرِّ فحسب؛ بل بعث إليه بين فترةٍ وأخرى رسولًا يحمل من الله كتابًا، يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويبشر وينذر؛ لتقوم عليه الحجة، قال تعالى: { رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 165].

وظلت الإنسانية في تطورها ورقيها الفكري، والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية في نطاق قومِ كلِّ رسولٍ، حتى اكتمل نضجها، وأرادَ اللهُ لرسالةِ محمدٍ ﷺ أن تشرقَ على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل؛ ليكمل صرحَ إخوانِهِ الرسلِ السابقين بشريعته العامة الخالدة، وكتابه المُنَزَّلِ عليهِ وهو القرآن الكريم، فلا غرو من أن يأتي القرآن الكريم وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية: { شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: 13].

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلاتِ الإنسانيةَ في شتى مرافق الحياة الروحية، والعقلية، والبدنية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية علاجًا حكيمًا.

لأنه تنزيل الحكيم الحميد، ويضع لكلِّ مشكلةٍ بلسمها الشافي على أسس عامة تترسم الإنسانية خُطَاهَا، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكتسب بذلك صلاحيته لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهو دِينُ الخلود.

والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن: { قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾} [طه: 123، 124].

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط ميادين النظم والمبادئ الأخرى، فحريٌّ بهم أن ينفّضوا أيديهم من كل بهرج زائف.

وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم؛ حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام.

وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر" انتهى كلامه.

ثانيًا: بيان اشتمال الكتب السماوية على كل صدق وحق:

لما كانت الكتب السماوية هي وحيٌّ من الله ﷻ إلى أنبيائه ورسله، وفيها تعاليم للأمم المخاطبين بتلك الرسالات، وفيها بيان للعقيدة والشريعة، وقد أرشد اللهُ فيها الأمم إلى ما يسعدهم في معاشهم ومعادهم -فإن الله ﷻ ضَمّنَ هذه الكتب السماوية كلَّ صدقٍ وحقٍّ، فكانت التعاليم الواردة في هذه الرسالات السماوية كلها صدق وحقّ، فلم يَرِدْ في كتابٍ سماويّ صحيحٍ أمر كذب، أو خطأٌ علمي، أو أمرٌ يخالف حقيقةً تاريخيةً؛ بل كانت الشرائع الواردة في كُتب الله المنزَّلة شرائع صدق وحق.

وكذلك العقائد والمعاملات والأخلاق والقصص، ولا غرو في ذلك؛ فإنها وحي أوحاه الله ﷻ إلى رسله المصطفين، فلم يتطرق إليه الكذب والجور والظلم، فهذه صفات تمتنع في حق الخالق ﷻ.

وإذا أخذنا القرآن الكريم نموذجًا للكتب السماوية؛ فإنه سيظهر لنا واضحًا الحق والصدق كما صرحت بذلك كثيرٌ من آياتِهِ، وذلك دليلٌ عَلَى أن كل ما ورد فيه فهو صدقٌ وحقٌّ ومعقولٌ، فمن ذلك قوله تعالى: { وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ } [الأنفال: 7]، وقوله تعالى: { لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ } [الأنفال: 8] وقوله: { أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ } [الشورى: 24].

وقال تعالى مبينًا أن المؤمنين الصادقين المهتدين هم الذين يعلمون أن كل ما في القرآن حقٌّ وصدقٌ لا باطلَ فيهِ، بعكس المكذبين به؛ فإنهم يشككون في تعاليمه ويطعنون فيها: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ } [البقرة: 26] وقال تعالى: { إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا } [النساء: 105] وقال تعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء: 170].

وقد أقسم الله ﷻ في القرآن الكريم بأنه حقٌّ، كما قال تعالى: { وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} [البقرة: 149].

يقول ابن أبي العز الحنفي -رَحِمَهُ اللهُ-:

"فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حقٌّ وهدًى ونورٌ وبيانٌ وشفاءٌ، قال تعالى: { قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَـٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 136] وقال تعالى: {الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ} [آل عمران: 1-4]، {ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ } [البقرة: 285] {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا } [النساء:

82]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تَكَلَّمَ بِهَا، وأنها نزلت من عندِهِ، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة: 213] {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت: 41-42] { وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ } [سبأ: 6] {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يونس: 57] {وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ } [فصلت: 44] {فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [التغابن: 8]، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة" انتهى كلامه -رحمه الله.

وقد بيّن الشيخ عطية محمد سالم -رَحِمَهُ اللهُ- في كتابه (آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى) في كثير من تلك الآيات التي تناولها في هذا الكتاب، وذلك في معرض بيانه لهدي القرآن الكريم -أن هذا القرآن الذي اشتمل على هذه الهداية والاستقامة، اشتمل عليها بحكم كونه وحيًا من الله ﷻ إلى محمد ﷺ عن طريق الواسطة الملكي جبريل عليه السلام ، وأن هذا الكتاب الذي اشتمل على الهداية بأنواعها، والاستقامة التي طلبها من أتباع هذا الدين، حصل له ذلك بسبب أن كلَّ ما ورد في هذا القرآن الكريم فهو حقٌّ وصدقٌ وهدًى واستقامةٌ ونورٌ.

العنصر الثاني: أدلة وجوب الإيمان بالكتب السماوية

أولًا: حُكم الإيمان بالكتب المنزلة:

معنى كون الإيمان بكتب الله المنزلة من أركان الإيمان؛ أن الركن هو الأساس الذي يقوم عليه الشيء كركن البنيان، فإنه لا يستقيم إلا على أركانه، فإذا سقَطَ ركن البنيان تهدَّمَ

البناء بأكمله، وكذلك أركان الإيمان فإنها بمجموعها يحصل الإيمان، وبتخلف ركن من تلك الأركان يبطل الإيمان المزعوم.

فالإيمان بالكتب المنزلة ركن واجب، وأمر لازم؛ لأن مَن آمَن بالله تعالى ربًّا، وآمن برسله المصطفَين، وأثبت أن أولئك الرسل حملوا رسالاتٍ إلى أممهم، وجب عليه أن يؤمن بأن الله تعالى أوحى إلى رسله وحيًا، وأنزل كتبًا عن طريق واسطة الوحي وهو الملك جبريل عليه السلام، وأن كل رسول كان يبين لقومه ما نُزِّل إليهم من تعاليم ذلك الكتاب المنزل عليه؛ فيأمرهم بعبادة الله تعالى، وينهاهم عن الشرك وعن وسائله، كما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وأن كل رسول كان يُبعث إلى قومه برسالة خاصة بهم، وبكتاب لا يتعداهم، حتى ختَمَ الله تلك الرسالات السماوية بخاتمة الكتب، وهو القرآن الكريم الذي نسخ ما سبقه من الكتب وهيمن عليه، كما ختم الله الرسل بخاتمهم وهو نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

فمن أركان الإيمان: أن نؤمن بالكُتُب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، فكما أن الله عز وجل قد أنزل القرآن على محمد ﷺ فقد أنزل كتبه من قبل على سائر الرسل.

ومن هذه الكتب ما سماه الله لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمِّ، والذي أخبرنا به عز وجل منها: التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، والزَّبور الذي نزل على داود عليه السلام، والصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى.

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله رسالةً بلغها قومَه، فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تسمَّ إجمالًا، ولا يجوز لنا أن ننسب كتابًا إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهُدَى، وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وأن ما نُسِبَ إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصُنعِهم. انتهى.

فوجوب الإيمان بكتب الله تعالى المنزلة أمر متفق عليه في شريعة الإسلام، وقد جعله الله تعالى ركنًا أساسيًّا من أركان الإيمان التي يشترط في المرء الإيمان بها جميعًا؛ حتى يظفرَ بلقب المؤمن، وينتظمَ في سَلك المؤمنين.

وقد كان الإيمان بالكتب السـماوية أمرًا واجبًا على الأمم السـابقة، ركزت عليه تلك الرسالات السماوية.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- وهو يتحدث عن الكتب المنزلة، ووجوب الإيمان بها:

والإيمان بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى- الانقياد لها، والحكم بما فيها، كما قال تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ } [المائدة: 44: 49]. انتهى.

ثانيًا: الأدلة من القرآن الكريم على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة:

إذا نظرنا في المصحف الشريف وجدنا جملةً وافرةً من الآيات القرآنية الكريمة التي تحثُّ على الإيمان بالكتب السماوية المنزلة، وتسمي بعضَ تلك الكتب، فبعضها يوصف بالكتاب، وبعضها يوصف بالصحف، وسنجد أيضًا أن هناك بعض الكتب مثل التوراة وصُفت تارة

بالكتاب، وسميت باسمها تارة ثانية، ووصفت بالصحف تارةً ثالثة، ووصفت بالألواح تارةً رابعة.

فمن هذه الآيات:

الآية الأولى: قول الله تعالى: { ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ } [البقرة: 285]. ففي هذه الآية ذكر الله ﷻ أن هؤلاء المؤمنين المتبعين للرسول ﷺ يؤمنون بالله، والملائكة، والكتب المنزلة، والرسل، ولا يفرِّقون بين هؤلاء الرسل.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

"يخبر تعالى عن إيمان الرسول، والمؤمنين معه، وانقيادهم، وطاعتهم، وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، على وجه الإجمال والتفصيل. ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملةً وتفصيلًا، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل، وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي" انتهى كلامه.

الآية الثانية: قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا } [النساء: 136]. أيضًا في هذه الآية التصريح بدعوة المؤمنين إلى الإيمان بالكتب السماوية المنزلة.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

"يأمر تعالى عبادَه المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان، وشُعَبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل حاصل؛ بل من باب تكميل الكامل، وتقريره وتثبيته، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: {ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ }، [الفاتحة: 6]، أي: بصِّرنا فيه، وزدنا هُدًى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى:

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الحديد: 28]، وقوله: { وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا } يعني: القرآن، {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا } [النساء: 136]، وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة. وقال في القرآن: "نزَّل"؛ لأنه نزل متفرقًا منجَّمًا على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم.

وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملةً واحدةً؛ قال تعالى: { وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا }[النساء: 136]، أي: فقد خرَجَ عن طريق الهدى، وبَعُدَ عن القصد كلَّ البعدِ" انتهى كلامه.

الآية الثالثة: قوله تعالى: { قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 136].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

أر شد الله تعالى عبادَه المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بوا سطة ر سوله محمد ﷺ مف صلًا، و ما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونَصَّ على أعيانٍ من الرسل، وأجمل ذكرَ بقية الأنبياء، وألا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمن بهم كلهم.

قال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويـ صدقوا بكتبه كلها وبر سله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما، ثم ساق سندَ حديثٍ، قال رسول الله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة، والزبور، والإنجيل، وليسعكم القرآن)) انتهى كلامه.

فالآيات التي تحث على الإيمان بالكتب المنزلة على الر سل -عليهم الـصلاة والـسلام- كثيرة جدًّا، وتبين أنه يجب الإيمان بها -أي: بالكتب جميعًا- من غير تفريق، فكما أنه يجب أن نؤمن بجميع الر سل - صلوات الله و سلامه عليهم- تفـصيلًا فيما ورد عنه التفـصيل، وإجمالًا فيما ورد الحديث عنه مجملًا، وأنه لا يصح إيمان من يدعي الإيمان ببعض الرسل ويكفر

بر سول، فإنه يعد كافرًا؛ فكذلك الإيمان بالكتب المنزلة يجب أن يكون شاملًا لجميع كتب الله تعالى السماوية، فَمَنْ آمن بكتاب وكفَرَ بآخر عُدَّ كافرًا بجميع الكتب المنزلة.

ثالثًا: الأدلة من السنة المطهرة على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة:

لقد اهتمت الـ سنة المطهرة ببيان الركن الثالث من أركان الإيمان؛ ألا وهو الإيمان بكتب الله المنزلة على الر سل الم صطفين – صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين– فكما بينت الآيات الـ سابقة وجوب الإيمان بالكتب الـ سماوية، وأن هذا الإيمان شرط في تحقق الإيمان الكامل؛ كذلك وجدنا الأحاديث النبوية تركز على بيان وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، وأن هذا الإيمان ركن أساسي من أركان الإيمان الستة.

فَمَنْ زعمَ أنه يؤمن بالله تعالى، وملائكته، ورســـله، واليوم الآخر، ويؤمن بالقدر، ثم يكفر بالكتب المنزلة، فإيمانه باطِلٌ وزعمه كاذب؛ لأن أركان الإيمان كلٌّ لا يتجزأ.

وأول حديث يوضح وجوب الإيمان بالكتب المنزلة، وأنه ركن ثالث من أركان الإيمان الستة –هو حديث جبريل المشهور.

فلقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: ((بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر الـ سفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأ سند ركبتيه إلى ركبتيه، وو ضع كفيه على فَخِذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإ سلام؟ فقال: الإ سلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن ا ستطعت إليه سبيلًا. قال: صدقت. فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ور سله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره و شره. قال: صدقت. فأخبرني عن الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الـ ساعة؟ قال: ما الم سئول عنها بأعلم من الـ سائل. قال: فأخبرني عن أماراتها –أي: علاماتها–؟ قال: أن تلِدَ الأَمَة ربتها، وأن ترى الحُفاة العراة رعاء الشـــاة يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبث مليًّا، ثم قال لي: يا عمرُ، أتدري من

الـ سائل؟ قلت: الله ور سوله أعلم، قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)) رواه الإمام مسلم.

ففي هذا الحديث العظيم الذي يسأل فيه جبريل عليه السلام خاتم النبيين ﷺ عن الإ سلام، والإيمان، والإحسان، وعن الساعة وأماراتها، ورد فيه جواب النبي ﷺ في تعريف الإيمان وذِكْر أركانه؛ لأن الإيمان يقوم على ستة أركان، لا يكون المرء مؤمنًا حتى يأتي بها جميعًا، ألا وهي: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه المنزلة، والإيمان برسـله -عليهم الصـلاة والسلام- والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

فاتـ ضح بذلك أن الإيمان بالكتب الـ سماوية واجبٌ على كل مؤمن، بل هو ركن أ سا سي لتصحيح إيمانه.

إذًا: فالإيمان بالكتب المنزلة أمر واجب وصريح -كما جاء في هذا الحديث الصحيح.

وفي الحديث الثاني الذي أخرجه الإمام ابن كثير -رحمه الله- عن مَعقِل بن يـ سار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((آمنوا بالتوراة، والزبور، والإنجيل، وليسعكم القرآن)) رواه في (التفسير).

وفيه أمر النبي ﷺ بالإيمان بالكتب المنزلة الأربعة التي صـرح القرآن الكريم بأسمائها، وهي: القرآن الكريم، والتوراة المنزلة على موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- والزبور وهو الكتاب المنزل على داود -على نبينا وعليه الـ صلاة والـ سلام- والإنجيل وهو الكتاب المنزل على عيسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

ثم بعد أن أمر النبي ﷺ بالإيمان بهذه الكتب الـ سماوية الأربعة -و ضح أنه يجب الا ستغناء بخاتمة هذه الكتب السماوية، وهو القرآن الكريم؛ لأنه نسخ كلَّ الشرائع السابقة بحكم كونه جاء خاتمًا للكتب المنزلة الـ سابقة، فإنها كانت تنزل على كل ر سول ر سالة خا صة موجهة إلى قوم معينين، فلما جاء الإ سلام ونزل القرآن على نبينا محمد ﷺ كان عامًّا موجهًا لجميع الناس؛ فلذلك ا ستوعب كل التعاليم التي جاءت بها الكتب الـ سماوية الـ سابقة، نا سخًا لها، ومهيمنًا عليها، فلذلك أمر النبي ﷺ بلزوم القرآن؛ لأنه كافٍ عن كل كتابٍ، ومغنٍ عن كل التعاليم التي يمكن أن تُطلب في غيره من الكتب والرسالات.

وبهذا يتضح أنه ثبت بالأدلة من السنة المطهرة الإيمان بالكتب المنزلة، كما ثبت ذلك بالكتاب العزيز، وأنه لا يجوز التفريق بين الكتب في الإيمان، إلا أن القرآن الكريم نسخ مَا سبقه؛ فلذلك وجب الاستغناء به.

الدرس الثالث: التعريف بالكتب السماوية السابقة، وبيان خصائص القرآن

عناصر الدرس

العنصر الأول: التعريف بالكتب السماوية السابقة

العنصر الثاني: مزايا اختص بها القرآن عن سائر الكتب المنزلة

العنصر الأول: التعريف بالكتب السماوية السابقة

أولًا: التعريف بالكتب السماوية المنزلة، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

إن الإيمان بأركان الإيمان الســـتة الواردة في حديث جبريل عليه السلام وهي: الإيمان بالله تعالى، وملائكته عليهم الـ سلام، وكتبه الـ سماوية المنزلة، ور سله الم صطفين –عليهم الـ صلاة والـ سلام–والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره و شره، حُلوه ومره–من الأمور الغيبية التي لا مجالَ في معرفتها والإحاطة بها بالرأي والاجتهاد؛ بل تتوقف معرفتها والإحاطة بها على الوحي الوارد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ.

فما فُصـــِّلَ لنا الحديث عنه في القرآن الكريم من هذه الأمور الســـتة وجب علينا معرفته بتفاصيله، وما أُجمل لنا الحديث عنه وجب علينا الإيمان به مجملًا، وكذلك فيما يرد في السنة المطهرة.

ومن هنا كان الحديث عن كتب الله تعالى المنزلة متوقفًا على الوحي –أي: ما ورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ فهناك آيات كثيرة وردت في شأن كتب الله تعالى المنزلة على الرسل؛ ففي بعض تلك الآيات ت صريح بكتب سماوية منزلة على ر سلٍ معينين، فهناك آيات صرحت بنزول الـ صحف على إبراهيم عليه السلام ، وآيات صرحت بنزول صحف على مو سى عليه السلام مع التـ صريح بنزول التوراة عليه أيـ ًضا، وكذلك التـ صريح بنزول الزبور على داود عليه السلام ، ونزول الإنجيل على عيـسى عليه السلام ، ثم نزول خاتمة كتب الله تعالى المنزلة وآخر ر سالات الله إلى الأرض الكتاب الباقي للبـشرية إلى قيام الـساعة؛ القرآن الكريم المنزل على خاتم الأنبياء والمر سلين سيدنا ونبينا محمد ﷺ.

وهناك بعض الآيات تُشير إلى كتب سماوية أنزلت على بعض الرسل، لم يخبرنا القرآن الكريم بأسمائها، إنما اكتفَى بالإشارة إليها، وذلك في قوله تعالى: { فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَـٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَـٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ } [الشـــورى: 15]. فكما أن هناك رســـلًا لم

يقصصهم الله تعالى علينا نؤمن برسالتهم في الجملة، كذلك هناك كتب أنزلت على رسل لم يخبرنا القرآن الكريم بأسمائها و لم يعطنا تفا صيل عنها، فنؤمن بنزولها في الجملة؛ لأن الحديث في هذا المو ضوع من الأمور الغيبية التوقيفية التي يتوقف الحديث عنها، ومعرفة تفا صيلها على ما يورده الوحي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

إذًا: الكلام عن الكتب الـ سماوية والتعريف بها، وذكر ما يتعلق بها –من الأمور الغيبية التي نحن نتوقف في معرفتها، وذكرها على ما ورد في كتاب الله وفي سنة ر سول الله ﷺ؛ فليس هناك م صدر يمكن أن ن ستقي منه هذا الكلام عن هذه الكتب، فمثلًا: الكتب الـ سماوية السابقة قد لحقها التحريف، وحَرَّفتها أيدي البشر من أتباع هذه الديانات، إذًا: هي ليست مصدرًا ولا مرجعًا لمعرفة كتب الله تعالى المنزلة.

بينما كتاب الله المنزل على خاتم رســـل الله ﷺ وهو القرآن الكريم، كتاب لم تلمس فيه يد البشر بالتحريف، بل تكفل الله ﷻ بحفظه، وذلك في قوله: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ } [الحجر: 9]، فقد حفظه الله ﷻ من التحريف، و سي ستمر ذلك الحفظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الكتاب هو الكتاب الموثوق به، الوحيد الذي يمكن أن يكون م صدرًا ومرجعًا للتعريف بكتب الله تعالى، ومعرفة الم صرح به من المجمل، وعلى مَن أُنزل؟ وما الأمور التي اشتمل عليها؟

أ. صحف إبراهيم وموسى:

هذه الصحف من الكتب المنزلة على هذين النبيين الكريمين، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة النجم، قال تعالى: { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ } [النجم: 36-41].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآيات:

"{ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى } هذا المدعي { وَإِبْرَهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّى } أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها: ما ذكره الله بقوله: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ} أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره و سعيهم شيء، ولا يتحمل أحدٌ عن أحدٍ ذنبه، { ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَى } في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، { ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَى } أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيِّئ الخالص بالسوأى والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها" انتهى كلامه.

ففي آيات سورة النجم تعريف لنا ببعض الأحكام الواردة، في صحف إبراهيم وموسى - عليهما السلام.

كما ورد ذكر صحف إبراهيم وموسى -عليهم السلام- في سورة الأعلى، قال تعالى: { إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ } [الأعلى: 18، 19].

ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- الخلاف في المشار إليه بقوله: { إِنَّ هَٰذَا }؛ هل هو الإشارة إلى ما ورد في سورة الأعلى كاملة؟ أم هو إشارة إلى قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ } [الأعلى: 14-17]؟

وذكر ابن كثير -رحمه الله- أن هذا الرأي الأخير هو الراجح؛ وهو أن تكون الإشارة في قوله تعالى: { إِنَّ هَٰذَا } إشارة إلى الآيات بعدها، وهي: {: { إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ } } أي: يرجح ابن جرير رحمه الله -كما ينقل الإمام ابن كثير- أن الإشارة إلى هذه الآيات، وليس إلى السورة كاملة.

ثم نقل ابن كثير عن ابن عباس {أنه قال: "لَمَّا نزلت: { إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ } قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى .

وروى ابن حبان في صـــحيحه، والحاكم وقال: صـــحيح الإســـناد، عن أبي ذر ﷺ قال: ((قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالًا كلها، قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال: كانت عبرًا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأنّ إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل)) انتهى كلامه بنصه.

ب. زبور داود عليه السلام :

الكتاب الذي أنزل على نبي الله داود عليه السلام اسمه الزبور، من الزبر وهو الكتابة؛ ولهذا قال تعالى واصفًا اللوح المحفوظ عنده بالكتاب في قوله: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ } [الأنبياء: 105]، فالزبور هنا المراد به اللوح المحفوظ. أما زبور داود عليه السلام فقد ورد ذكره في سورتين: الأولى في سورة النساء، وهي قوله تعالى: { وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا } [النســـاء: 163] والثانية ســـورة الإســـراء عند قوله تعالى: { وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا } [الإسراء: 55].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– في تفسير هذه الآية، والتي قبلها:

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم، والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– **وفي هذا عِدة فوائد:**

منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرســـل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرســـلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين، ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الر سل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الـصادق عليهم، و شرح أحوالهم؛ مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم ومحبة لهم واقتداءً بهديهم.

ولَمَّا ذكر اشتراكهم بوحيه ذكر تخصيص بعضهم؛ فذكر أنه آتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف المزبور الذي خص الله به داود عليه السلام ؛ لفضله وشرفه.

وهذا من كمال عِزته تعالى وحكمته أن أر سل إليهم الر سل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه. انتهى كلامه.

و لم نقف على تفاصـــيل عن كتاب الله تعالى الزبور، المنزل على داود عليه السلام غير ما ذكره بإجمال الشيخ السعدي في كلامه المنقول سابقًا.

ج. توراة موسى عليه السلام :

لقد تقدم معنا ذكر الـصحف المنزلة على إبراهيم وموسى –عليهما الـسلام– فمن العلماء من يرى أن صحف موسى هي ما آتاه الله من الوحي قبل أن تنزل عليه التوراة مشافهةً من غير واسطة، ومنهم من يرى أن الـصحف المنزلة على موسى عليه السلام المراد بها التوراة لا شيء آخر، والقرآن يعبر عن الكتاب المنزل على موســـى عليه السلام تارةً بالتوراة، وتارةً بالصـــحف، وتارةً أخرى بالألواح.

يقول الإمام ابن كثير –رحمه الله–:

ثم أخبر تعالى أنه كتَبَ له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلًا لكل شيء. قيل: كانت الألواح من جوهر، وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظَ وأحكامًا مفصـــلةً مبينةً للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشـــتملةً على التوراة التي قال الله تعالى: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَـــى ٱلْكِتَـــٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص: 43] وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. انتهى كلامه.

وقد أخبر الله تعالى عن التوراة المنزلة على موســـى عليه السلام أن فيها هدًى ونورًا، وأثنى عليها بقوله: { إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ } [المائدة: 44]، وهذا صـــريح في أن التوراة كتاب

أنزل من عند الله، وأنها ا شتملت على كل حق و صدق، وأن فيها الهدى التام والنور المبين، مثلها مثل غيرها من كتب الله المنزلة.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

إنا أنزلنا التوراة على مو سى بن عمران ﷺ فيها هدًى يهدي إلى الإيمان والحق ويع صِم من الضلالة، ونور يُستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ } [الأنبياء: 48].

يحكم بها بين الذين هادوا -أي: اليهود- في القـ ضايا والفتاوَى. النبيون الذين أ سلموا لله، وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد. انتهى كلام السعدي -رحمه الله.

د. إنجيل عيسى عليه السلام :

عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، أوحى الله إليه الإنجيل، وهو كتاب سَماوي يتبع في تعاليمه التوراة التي سبقته المنزلة على موسى بن عمران عليه السلام و لم يخالفها إلا في القليل النادر، يقول الله تعالى: { وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ } [المائدة: 46، 47].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره:

يقول تعالى: { وَقَفَّيْنَا } أي: أتبعنا { عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم } يعني: أنبياء بني إسرائيل { بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰ } أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها، { وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ } أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، أي: متبعًا لها غير مخالف لما فيها، إلا في القليل النادر مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المـ سيح أنه قال لبني إ سرائيل: { وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم

بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔـــايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [آل عمران: 50]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعضَ أحكام التوراة.

وقوله تعالى: { هَـٰـــذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 138]؛ أي: وجعلنا الإنجيل هدى يُهتدى به، أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، أي: لمن اتقى الله، وخاف وعيده وعقابه.

وقوله تعالى: { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ } قرئ: "وليحكمَ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" بالنصب على أن اللام لام "كي"، أي: للتعليل، أي: وآتيناه الإنجيل؛ ليحكم أهل ملته في زمانهم. وقرئ: "وليحكمْ" بالجزم على أن اللام لام الأمر؛ أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أُمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد. انتهى كلامه.

إذًا: فنبي الله عيسى عليه السلام من جملة أنبياء بني إسرائيل، وهو آخرهم، وكتابه الإنجيل قريب في المماثلة للتوراة التي سبقته، والتي أُنزلت على موسى بن عمران عليه السلام ؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن القرآن الكريم بين هذين الكتابين السماويين في الحديث، كقوله تعالى: { ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ } [آل عمران: 2، 3] وكقوله تعالى: { وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ } [المائدة: 110] وكقوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: 157]، إلى غير ذلك من الآيات.

هـ. قرآن نبينا محمد ﷺ:

أما القرآن الكريم المنزل على سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ فهو خاتمة الكتب السماوية المنزلة، وآخر الكتب نزولًا بعد كتاب الإنجيل المنزل على عيسى ابن مريم -عليهما السلام- فهو

المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة الذي نسخ الله به كلَّ الشرائع، وجعله الله حجةً على الخلائق أجمعين، ولا يقبل من أحد عملًا حتى يتبعه.

يقول الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله-:

أنه ليس لأحد الخروج عن شيء من أحكامه، وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه، وأن من اتبع غير سبيله و لم يقتفِ أثره ضَلَّ، كما قال تعالى: {الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ } [الأعراف: 1-3].

فلا بد في الإيمان به من امتثال أوامره واجتناب مناهيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتلاوته آناءَ الليل والنهار، والذبِّ عنه؛ لتحريف الغالين وانتحال المبطلين، والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها. انتهى كلامه.

والآيات التي تُصـــرح بإنزال الله تعالى القرآن الكريم على خاتم النبيين محمد ﷺ كثيرة؛ منها قوله تعالى: {وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ } [المائدة: 48].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

لَمَّا ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موســـى كليمه، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه -كما تقدم بيانه- شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ور سوله الكريم ﷺ فقال تعالى: { وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ } أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه أنه من عند الله { مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ } أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ور سوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البـ صائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، و صدقوا ر سل الله. انتهى كلامه.

ومن تلك الآيات أيضًا قوله تعالى: {الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ } [آل عمران: 1- 4].

ثانيًا: الإيمان بالأصـــول الأولى للتوراة والإنجيل فقط؛ لوقوع التحريف في الموجود منهما الآن:

1. وجوب الإيمان بأصول التوراة والإنجيل:

لقد بعث الله تعالى رسوله موسى بن عمران نبي الله، وكليمه إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه كتابه التوراة فيها هدى ونور، كما ثبت في القرآن الكريم أن موســـى عليه السلام طلب من ربه عز وجل أن يرسل معه أخاه هارون لفصاحته، وأن موسى عليه السلام كلّمه الله تعالى مباشرة من غير واسطة من الملائكة، وأوحى إليه التوراة حتى صار يعرف موسى عليه السلام من بين سائر الرسل بالكليم؛ وذلك لقوله تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰـهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا } [النســـاء: 164]، بينما كانت الرســـل يأتي إليها الوحي من الله عز وجل بواسطة الملائكة.

والملك المُوَكّل بالوحي إلى الرســـل هو جبريل عليه السلام ، وقد ينزل معه بعض الملائكة؛ ولكن يكون ذلك بالتبعية لا الاستقلال. وقد ثبت كلام الله عز وجل مباشرة من غير واسطة لثلاثة هم: كليم الله موسى عليه السلام وقد اشتهر بذلك؛ لأن الرسالة الموحى بها إلى موسى عليه السلام ثبت أنها أوحيت إليه كفاحًا من غير واسطة، وثبت التكليم كذلك بدون واسطة لنبي الله آدم أبي البشر، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 30]، كذلك ثبت في قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [البقرة: 35]، فثبت النداء هنا لآدم عليه السلام مباشرة من غير واسطة، والمكلَّم الثالث أيضًا من غير واسطة هو خاتم الرسل والأنبياء نبينا وحبيبنا محمد ﷺ؛ وذلك

في ليلة المعراج عندما عرج به جبريل إلى الـ سَّمَوَات الـ سبع، وكلم الله ﷻ وأوحى الله إليه الصلوات الخمس، فثبت التكليم هنا أيضًا لآدم عليه السلام ، ولخاتم المرسلين والنبيين محمد ﷺ.

وقد بلّغ موسى عليه السلام رسالته إلى قومه بني إسرائيل على أكمل وجه وأتمه، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ، فيجب في شريعة الإسلام الإيمان بالأصول الأولى لكتاب الله تعالى التوراة، وأنها اشتملت على صدق وحقّ وعدل؛ ولهذا وصف الله تعالى التوراة بأنها اشتملت على الهدى والنور، قال تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ} [المائدة: 44]. وفي آية أخرى من كتاب الله تعالى وُصفت التوراة بأن فيها حكمَ الله، قال تعالى: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: 43].

وكثيرًا ما يردُ في القرآن الكريم في معرض جدال أهل الكتاب، أن الله تعالى يأمر نبيه محمدًا ﷺ بأن يحتجّ عليهم بما في التوراة من الحقّ، الذي يخالف ما عليه أهل الكتاب.

وهذا أكبر دليل على أن أصـــول التوراة كانت باقية، وفيها الحق والتوحيد، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ في إحدى المجادلات بينه وبين أهل الكتاب: {كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ} [آل عمران: 93].

يقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في كتابه (الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة):

التوراة في اللغة كلمة عبرانية معناها: الـشريعة أو الناموس، وهي في اصطلاح اليهود: عبارة عن خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده، وهي:

الأول: سفر التكوين.

الثاني: سفر الخروج.

الثالث: سفر اللّاويين أو الأخبار.

الرابع: سفر العدد.

الخامس: سفر التثنية.

أما التوراة في ا صطلاح الن صارى، فهي تُطلق على جميع الكتب التي ي سمّونها كتب العهد القديم، وهي كتب أنبياء بني إ سرائيل، وتاريخ قضائهم وأخبار ملوكهم قبل المسيح عليه السلام ؛ ســـواء عرفوا كاتبه أو لم يعرفوه، وقد يطلقون هذه التوراة على مجموع هذه الكتب وعلى الأناجيل أيضًا.

والتوراة في اصطلاح المسلمين: هي الكتاب الذي أنزله الله على مو سى نورًا وهدًى للناس، وألقاه إليه مكتوبًا في الألواح، وقد يُطلق بعض المســـلمين التوراة على مجموع كتب العهد القديم.

و سيمرّ معنا أن الكتاب المقدس الذي بأيدي اليهود والنصارى الآن، يشتمل على قسمين: ق سم ي سمّونه العهد القديم وهذا يق صدون به التوراة، وق سم ي سمّونه العهد الجديد وفيه الأناجيل الكثيرة جدًّا، والتي اقتصـــروا منها على أربع: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل برنابا، هذه الأناجيل الأربعة يسمونها العهد الجديد، ويقصدون بذلك الإنجيل، أي: يطلقون مجموعة الأناجيل على الإنجيل، وهو ا سم كتاب الله المنزّل على نبيه عي سى عليه السلام .

إذًا: يجب الإيمان بالأصول الأولى للتوراة قبل التحريف، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسوله مو سى عليه السلام إلى بني إ سرائيل، الذين كان فرعون يضطهدهم ويأمرهم بعبادته، {ج ج چ چ} -والعياذ بالله، كما يجب الإيمان بأن الله تعالى أيّد نبيه مو سى عليه السلام بكتاب أنزله عليه، وهو التوراة التي فيها حكم الله، والتي فيها الهدى والنور وال صدق والحق، وأن خاتم النبيين محمدًا ﷺ كان يدعو اليهود إلى التحاكم إليها؛ إذ لما هاجر إلى المدينة -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- وجد اليهود في المدينة.

وتذكر كتب السيرة أن هناك فصيلين مشهورين في المدينة المنورة على عهد المصطفى ﷺ؛ قسمًا كان يسمى يهود بني قريظة، والقسم الآخر يسمى يهود بني قينقاع، فقد حاكم النبي

ﷺ أحد اليهود وحكم عليه بالرجم، فلما أنكروا وجود هذا الحكم ندب النبي ﷺ أحد القراء الذي كان يقرأ بالعبرية إلى قراءة التوراة، فقرأها، فلما وصل القارئ إلى موضع الرجم وضعوا أيديهم عليه حتى لا يراه، لكن النبي ﷺ مؤيّدٌ بالوحي فأعلمه الله بهذه الحيلة، فأمر القارئ أن يقرأه فقرأ الحكم الثابت الموافق للقرآن الكريم، وهو إثبات الرجم، و سيأتينا أنهم غيّروا هذا الحكم إلى تسويد وجه الفاعل، والتشهير به بدل الحكم عليه بالرجم، وهذا تغيير وتحريف للتوراة، كما سيمرّ معنا في العصور الثانية.

وفي هذه القصة دليل على الإيمان بالأصول الأولى للتوراة، وأنها كانت موجودة، وفيها الحق والعدل والأحكام الثابتة؛ لأن النبي ﷺ حاكم اليهود إلى كتابهم في أيامه ﷺ.

إذًا: فأهل التوراة كتابيّون موحّدون في الأصل؛ لأن أصل التوراة فيها التوحيد والإيمان قبل أن تحرّفها أيدي المحرفين من البشر -كما صرّحت بذلك (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة). وكما وجب الإيمان بأصول التوراة -كما مر معنا- وجب الإيمان أيضًا بأصول الإنجيل، فلقد بعث الله نبيه عيسى عليه السلام رسولًا إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه كتابًا أيّده به كما ثبت ذلك في القرآن الكريم، وأن كتاب عيسى عليه السلام اسمه الإنجيل، وهو أحد كتب الله المنزلة التي صرّح القرآن الكريم بأسمائها، قال الله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ } [آل عمران: 48]، وقال تعالى: {وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ } [المائدة: 110]، وقال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } [المائدة: 46].

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: { وَقَفَّيْنَا } أي: أتبعنا { عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم } يعني: أنبياء بني إسرائيل { بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ } أي: مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها، { فِيهِ هُدًى وَنُورٌ } أي: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، { وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } أي: متبعًا لها غير مخالف لما فيها، إلا في القليل النادر مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني

إسرائيل: {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [آل عمران: 50]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعضَ أحكام التوراة.

وقوله تعالى: {هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 138]؛ أي: وجعلنا الإنجيل هدى يُهتدى به، { هَـٰذَا بَيَانٌ } أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، { وَمَوْعِظَةٌ } أي: لمن اتقى الله، وخاف وعيده وعقابه" انتهى كلام ابن كثير، رحمه الله.

ويقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في كتابه (الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة) في تعريف الإنجيل:

"الإنجيل كلمة يونانيّة معناها: البشارة، أما في الاصطلاح فيطلق على كتاب الله تعالى المنزّل على عيسى عليه السلام . وقد وصف الله -تبارك وتعالى- هذا الإنجيل بقوله عز وجل: {وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: 46]، بيد أن هذا الإنجيل لا وجود له عند النصارى، ولم يذكر أحد من علماء التاريخ أنه رأى نسخةً منه، ويبدو أن عيسى عليه السلام لم يكتبْه، وإنما كان يبشّر به في بني إسرائيل، وقد وَرَدَ ذكرُهُ في الأناجيل التي أُلّفت بعد رفع المسيح عليه السلام ؛ فقد ذكره متَّى في إنجيله في الإصحاح الرابع منه" انتهى كلامه -حفظه الله.

فمِمّا سبق يتّضح لنا أنه يجب الإيمان بأصول التوراة والإنجيل، المنزّلين على النبيّين الكريمين موسى وعيسى -عليهما الصلاة والسلام.

أما الآن فقد لحق التحريف بهذين الكتابين، ومُدَّتْ إليهما أيدي الذين يبدّلون كتاب الله ويشترون به ثمنًا قليلًا، ولم يبقَ لليهود ولا للنصارى شيء صحيح من الوحي يتمسّكون به في هذين الكتابين؛ وذلك بسبب ما يلي:

الأمر الأول: أن هذه الكتب السماوية السابقة لم يتكفّل الله عز وجل بحفظها من التغيير والتحريف والتبديل؛ لأنها كانت رسائل لأمم مخصوصين، ولفترات زمنية محدّدة، فتنتهي بانتهاء تلك الأمة، ولعلّ هذا هو السر في تحريف وضياع أصول تلك الكتب.

الأمر الثاني: أن هذه الر سالات، وهذه الكتب الـ سماوية كانت الحكمة منها أن تنقذ أمة معينة من الـضلال إلى الهدى والنور، وأن هذه الر سالات لم تكن ر سالة عامة لجميع الناس، صالحة لكل زمان ومكان، كما هو الحال والـشأن في ر سالة الإ سلام، ر سالة خاتم النبيين والمرسلين محمدٍ ﷺ.

فهذه قد تكفّل الله تعالى بحفظها أولًا، وثانيًا أتتْ ر سالة عامة لجميع البشر ولجميع الناس، لكل زمان ومكان؛ فلذلك كانت قادرة على البقاء، وتكفُّل الله ﷻ بحفظها يدلّ دلالة قوية على أنها لن تصلْ إليها أيدي المحرفين والعابثين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إذًا: لم يتكفل الخالق ﷻ بحفظ كتابٍ غير القرآن الكريم، فهو الكتاب الســـماوي الوحيد المحفوظ من التحريف والتبديل إلى يوم الدين، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ } [الحجر: 9].

2. تحريف التوراة الموجودة الآن:

الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن أنزلت لأقوام معينين، ولفترة زمنية محدودة، و لم تنزلْ شـــريعة خالدة عامة؛ فلذلك لم يتكفّل الله ﷻ بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن الكريم، فـضاعت أ صول تلك الكتب، وتغيّرت أحكامها؛ فالتوراة فُقدت منذ زمن قديم، و ضاعت بسبب التنكيل، والنكبات التي مرّت ببني إ سرائيل من قتلٍ وتـشريدٍ، وتـسليط الله عليهم من يـ سومهم سوء العذاب؛ جزاء بغيهم وإفـ سادهم في الأرض. فالتوراة الموجودة الآن محرفة، وليـ ست هي التوراة التي أنزلت على نبي الله مو سى بن عمران عليه السلام ؛ وإنما هي مجموعة من الأ سفار كتبها اليهود بأيديهم، ثم قالوا: هي من عند الله؛ ليـشتروا بها ثمنًا قليلًا، قال تعالى: { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ } [البقرة: 79].

ومن الأدلة على تحريف التوراة ما تـ ضمّنته من عقائد فا سدة، وحكايات كاذبة، وتناقـ ضات واضحة، وإفسادٍ للأخلاق، وتزويرٍ للأحكام، فالله ﷻ نسبت إليه التوراة من صفات النقص ما يتنزّه عنه ﷻ؛ فجعلته إلهًا خاصًّا ببني إسرائيل، وهو ﷻ ربّ العالمين، وصوّرته كالإنسان يتعب

ويستريح فتقول: إنه خلق السَّمَوَات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع يوم السبت –تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. وقد ردّ الله على كذبهم وضـــلالهم بقوله ﷻ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ } [ق: 38].

يقول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد:

"اتفق المســـلمون على أن التوراة قد دخلها تحريف وتغيير وتبديل، غير أن بعض العلماء يذهب إلى أن هذا التحريف لم يكن تحريفًا في حروف التوراة؛ وإنما كان في صرف المعاني التي جاءت بها التوراة إلى غير وجهها، وحملها على غير ما وُضعت له.

وسائر علماء المسلمين على أن التوراة قد دخلها تحريف في ألفاظها ومعانيها، وقد جاء التصريح بذلك في كتاب الله تعالى حيث يقول: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة: 75]، فدلّ هذا على أن التوراة كانت قد فُقِدَتْ، وأن الذي جاء بها هو حِلْقِيَا الذي سلّمها لِشَافَانَ الكاتب، وسلمها هذا بدوره إلى الملك؛ على أن فقد التوراة أمر متفق عليه عند جميع بني إسرائيل، فقد أقرّ الجميع أنها فُقدت مع التابوت لما خرّب بُخْتَنَصّر الهيكل، وفي بعض الأخبار أنه حرّق جميع نسخ التوراة.

ونحن –المسلمين– نعتقد أن التوراة لم تحرّف تحريفًا كليًّا، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها، وأن بعض الأحكام التي شرّعها الله لبني إسرائيل في التوراة لم تُبَدّل كرجم الزناة والقصاص، وإن كان اليهود قد انْحَرَفُوا عن العمل بهذه الأحكام، فبدّلوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره.

وكذلك بعض صفات رسول الله ﷺ قد بَقِيَتْ في التوراة، وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدلّ عليه ﷺ، ولهذا المعنى يطلب الله من بني إســـرائيل العمل بالتوراة وتحكيمها؛ إذ إن هذا موافق لما جاء به محمدٌ ﷺ، ونعتقد أن من التحريف ادّعاءهم أن العزير ابن الله، وقولهم: {وَمِنْ

أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران: 75].

وكذلك ما وَصَفوا به بعض الأنبياء –عليهم السلام– كوصفهم ليعقوب بأنه صارع الرب جلّ وعلا، وكذكرهم أن لوطًا شـــرب الخمر وزنى بابنتيه بعد نجاته إلى جبل صـــوغر، وكوصفهم لداود بأنه قَبُحَ في عين الرب، إلى غير ذلك –والله أعلم" انتهى كلامه –حفظه الله.

ومن هذا نعتقد أن تحريف التوراة أمرٌ ثابت لا مرية فيه، والعقلاء من جميع الطوائف يؤكّدون ذلك ويصرّحون به؛ لأن هذه الأحكام الموجودة الآن بأيدي المتّبعين للتوراة كلها تُخالف شرع الله، فهي ضدّ التوحيد، وهي ضدّ الأحكام الثابتة التي أقرتها رسالة الإسلام.

أضف إلى ذلك تاريخ ضياع هذا الكتاب، والتشريد والاضطهاد الذي لحق بأتباعه، والقصص التاريخية التي ثبت من خلالها أن بختنصر لما حكم على اليهود بالاضطهاد، حرّق الكتب –التوراة– التي كانت بأيديهم.

3. تحريف الإنجيل الموجود الآن:

أما الإنجيل وهو الكتاب المنزّل على نبي الله عيســـى عليه السلام والمعروف عند النصـــارى في الكتاب المقدس بالعهد الجديد، وسنذكر أنه عدّة أناجيل –فهو محرّف أيضًا مثل التوراة – كتب العهد القديم– حيث إن الإنجيل قد فُقِدَ واندثر لأمور منها، كما ذكرها صـــاحب كتاب (البيان في أركان الإيمان):

أولًا: الاضطهادات التي تعرّضت لها النصارى بعد المسيح عليه السلام، وكانت سببًا في اختفاء النسخة الحقيقية.

ثانيًا: أن عيسى عليه السلام كان رسولًا إلى بني إسرائيل، فرسالته محدّدة لقوم مخصوصين، والإنجيل الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على عيســـى ابن مريم كتاب واحد، والإنجيل الموجود اليوم ليس إنجيلًا واحدًا؛ بل هو أناجيل كثيرة، وقد اتّفق النصـــارى على أربعة منها، وهي: إنجيل لوقا، إنجيل متّى، إنجيل مرقص، إنجيل يوحنّا.

فنحن أمام كُتُب أربعة، وليس أمامنا كتاب واحد، وهذا أكبر دليل على التحريف؛ لأن الله ﷻ لم يثبت أنه أنزل أناجيل على عيسى عليه السلام ، وإنما الثابت أنه أنزل إنجيلًا واحدًا.

ثالثًا: أننا لم نجد إنجيلًا واحدًا يُنسب لعيسى عليه السلام ، وإنما هي منسوبة إلى مؤلفيها من البشر. وهذا –لعمر الله– أكبر دليل وأقواه على أن هذه الأناجيل مكتوبة بأيدي البشر، وأن الإنجيل –الرسالة السماوية التي أنزلت على عيسى عليه السلام حُرّف، وبُدّل، وضيّع، وفقد، وقد اختيرت هذه الأناجيل الأربعة من سبعين إنجيلًا، ومع ذلك بينها اختلافات كثيرة، وتُسَمّى هذه الأسفار الأربعة العهد الجديد.

ومما يدلّ على تحريف الإنجيل أن هذه الأناجيل الموجودة عبارة عن قصص، وروايات في سيرة المسيح عليه السلام ، تُنسب إلى مؤلفيها، وقد اشتملتْ على عقائد باطلة لا يقرّها دين ولا يقبلها عقل، ومن ذلك:

أ. نسبة الولد إلى الله تعالى: فقد اتّفقت الأناجيل الأربعة على أن عيسى عليه السلام هو ابن الله – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا– والله تعالى يقول في سورة الإخلاص: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ } [الإخلاص: 3، 4].

ب. نسبة الصلب إلى عيسى عليه السلام : وذلك تكفيرًا عن خطيئة آدم وفداءً للبشر، القصة المشهورة في دين النصارى، وأن عيسى عليه السلام صُلِبَ وقتل في هذه الدنيا؛ ليكفّر الخطيئة التي ارتكبها آدم من أكله للشجرة لما نهاه الله ﷻ، فعندما أكل آدم من تلك الشجرة لصقت هذه الخطيئة بالبشر، فأرسل الله عيسى عليه السلام ثم قدّم عيسى عليه السلام نفسه فداءً لجميع البشر؛ من أجل أن تُمحى عنهم هذه الخطيئة.

وهذه القصة الخرافية ردّ عليها القرآن الكريم وكذّبها، وذلك في قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا } [النساء: 157]، وفي آية أخرى يقول الله تعالى: {بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 158]، أي: إن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب؛ وإنما ألقى الله شبهه على رجل فقتله اليهود وظنوا أنه عيسى عليه السلام ، بل المسيح عليه السلام رفعه الله إليه.

ج ـــ. تحميل خطيئة آدم في أكله الشجرة لبنيه: وذلك ليكون صلبه فداءً لهم، والله تعالى يقول: {إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ } [الزمر: 7]، فلا يمكن أن تعذّب نفس بما كسبت نفسٌ أخرى، فهذا لا يقرّه دين ولا يقبله عقل. كما أن الله ﷻ صرّح بقبول توبة آدم، وذلك في قوله تعالى: {ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } [طه: 122]، وهذا أكبر دليل في الردّ على هذه القصة الخرافيّة –قصة الصلب والفداء.

د. اعتماد الإنجيل المحرّف في أحكامه وشرائعه على التوراة –كتب العهد القديم: والتوراة محرفة، فيكون الإنجيل محرّفًا كذلك؛ لأن القاعدة المشهورة تقول: ما بني على باطل فهو باطل، وهنا نقول: ما بني على محرّفٍ فهو محرّف مثله.

أضف إلى ذلك التضارب بين كتب العهد الجديد –أي: الأناجيل نفسها– وأول ما يقابل المرء من ذلك هو اختلاف في أمر واحد لا يقبل إلا حقيقة واحدة، وهو اختلاف إنجيل متَّى عن إنجيل لُوقا في نسب المسيح عليه السلام ، وهذا مثال واحد والأمثلة كثيرة، إلى غير ذلك من التضادّ والاختلاف؛ مما يدل على أن النصارى واليهود ليسوا على شيءٍ، بل هي كتابات كتبها قساوستهم وعلماؤهم بأيديهم؛ ليشتروا بها ثمنًا قليلًا، ممّا جعل التحريف أمرًا مجمعًا عليه بين العقلاء عند هاتين الطائفتين، ولم يبقَ وحيٌ من عند الله يُتْلَى لم تمسّه أيدي المحرفين سوى كتاب خاتم النبيين حبيبنا محمدٍ ﷺ، ألا وهو القرآن الكريم.

والدليل على ذلك هو حفظ الله ﷻ لهذا الكتاب من التبديل والتحريف، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ } [الحجر: 9]، ولو ظهر لنا رجل؛ سواء كان ينتمي إلى ملّة الإسلام أو هو معادٍ لها، وقرأ علينا كتاب الله ﷻ، ثم دسّ لنا حرفًا واحدًا محرفًا، زيادة أو نقصًا– فإننا سنجد الأمة بعلمائها ونسائها وأطفالها يردّون عليه؛ لأن هذا الكتاب حُفظ في الصدور قبل أن يحفظ في السّطور، وهذا أكبر دليل على أن حفظه باقٍ إلى يوم القيامة.

كما تكفّل الله ﷻ بذلك؛ لأنه رسالة الوجود الخالدة، فكما أن نبينا محمدًا ﷺ خاتم النبيين ولا نبيّ بعده؛ كذلك كتابه خاتم الكتب ورسالته خاتمة الرسائل، فلا رسالة بعده ولا كتاب بعد القرآن، فلذلك حفظ الله هذا الكتاب؛ لأن الأمة ستحتاج إلى وحي يُنير لها السبيل،

ويبين لها الحلال والحرام، ويصلح من شأنها ويهديها الصراط القويم المستقيم، ولن نجد ذلك إلا في هذا الكتاب المحفوظ من التحريف والتبديل.

أما الكتب السماوية السابقة، فللعلّة التي مرّت معنا لم يتكفّل الله ﷻ بحفظها؛ لأنها رسالة خاصة بأمة معينة وتزول بزوال تلك الأمة، وأن بقيّة أصولها موجودة إلا أن التحريف والتبديل اختلط بها.

العنصر الثاني: مزايا اختص بها القرآن عن سائر الكتب المنزلة

أ. هداية القرآن الكريم لأقوم العقائد:

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-في تفسير قول الله تعالى: { إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا }:

ذكر – جل وعلا–في هذه الآية الكريمة، أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين –جل وعلا– يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أشد وأعدل وأصوب.

وهذه الآية الكريمة أجمل الله فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا –إن شاء الله تعالى– سنذكر جُملًا وافرةً في جهات مختلفة كثيرة، من هدي القرآن للتي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كلِّه من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام؛ لقصور إدراكهم على معرفة حِكمها البالغة.

فمن ذلك: توحيد الله –جل وعلا–فقد هدى القرآن فيه للتي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده –جل وعلا.

ب. هدايته لأقوم الشرائع:

نزل القرآن الكريم خاتمة للكتب الســـماوية، فلا كتاب بعد القرآن، كما أنه لا نبي بعد الر سول محمد ﷺ، من أجل ذلك جاءت شريعة الإ سلام وافيةً بحاجات البـ شر؛ لأن نبي الإ سلام الخاتم محمدًا ﷺ بُعث إلى الناس كافة، قال تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَـٰـكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰـكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [سبأ: 28]، و شريعة الإ سلام ر سالة خالدة إلى قيام الـ ساعة؛ فلذلك كانت تحتوي على أقوم الـ شرائع التي تـ صلح بها حياة المجتمعات في كل عصر، وفي كل مصر.

يقول صاحب (مباحث في علوم القرآن):

وخلاصة القول: أن القرآن د ستورٌ تشريعيٌّ كاملٌ، يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، و سيظل إعجازه التـ شريعي قرينًا لإعجازه العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكر أنه أحدث في العا لم أثرًا غيّر وجه التاريخ. انتهى كلامه.

فلم تعرف البـ شرية –على مر التاريخ–تـ شريعًا يفي بجميع حاجات البـ شر مثلما عرفته في شريعة الإ سلام ونظامه الاجتماعي، وهذا قد شهد به المنـ صفون من عقلاء الغرب وأتباع الديانات الأخرى.

ولو أخذنا مثالًا واحدًا على كمال شريعة الإ سلام وهدايته لأقوم الـشرائع، لاتـضح لنا جليًّا قيمة هذه الـشريعة وسمو هدفها؛ لأن الله تعالى هو الُمشرّع لها على لسان نبيه ﷺ من خلال الوحي الذي نزل به جبريل عليه السلام على رســـول الهدى محمد ﷺ، وليكن هذا المثال هو تـشريع القـصاص من القاتل عمدًا للنفس البريئة من غير وجه حق؛ حيث إن الإ سلام شرع قتل القاتل عمدًا؛ قـصا صًا منه إذا لم يرغب الورثة في أخذ الدية، فقد شرع الإ سلام للورثة الأخذ بحق الميت في القصاص من قاتله، وهذا قمةٌ في العدالة وإحقاق الحق.

بينما نجد أن القوانين الو ضعية رفضت القتل، وقالت: إن في القـصاص إفناء للمجتمع، فبدلًا من موت واحد يموت اثنان، هذا في اعتقادهم، و لم يدروا أن الـ سر في القـ صاص يمنع القتل

نهائيًّا؛ لأن مَن يعلم أن مصيره القتل إذا قتل غيره لا بد أن يمسك عن القتل، وهذا يعتبر حياة للاثنين، كما قال الله تعالى: {وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 179]، فهو حياة للقاتل بحيث سيمتنع مثله عن القتل العمد، وحياة للمقتول بحيث سيَرْتعِد القتلة عن قتل غيرهم؛ فتشيع الحياة في المجتمع ويقل القتل بين أفراده، وهذا حفظٌ لجميع أفراد الجنس البشري من القتل، وحياةٌ لهم عكس ما ظنه مسنو القوانين الوضعية.

نعم، فلنقس على ذلك بقية تشريعات الإسلام، فقطع يد السارق تقلل من السرقة، وتحفظ لأفراده حقوقهم وممتلكاتهم من عبث السُّراق العابثين، وكذلك بقية الجنايات، ففي شريعة الإسلام العين بالعين، والسن بالسن، والأذن بالأذن، والجروح القصاص.

ثم إن هذه العقوبات تطبق على الكبير والصغير، والشريف والوضيع، كما قال ﷺ: ((لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها))، إلى غير ذلك من التشريعات الربانية والهدايات الإلهية، التي لو طبقتها الإنسانية الحائرة اليوم لنجحت في علاج مشكلاتها الاجتماعية المعقدة المعاصرة.

ج. هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

بعث الله تعالى نبيه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فحرفها قومه، وبدّلوا وغيّروا حتى أصبحت التوراة غير التوراة، وبعث الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام وأنزل عليه كتابه الإنجيل فحُرِّفَ كما حُرِّفَت التوراة، وبُدِّلَ كما بُدِّلَتْ حتى أصبح الإنجيل غير الإنجيل، وبعث الله تعالى أنبياء آخرين وأنزل معهم الكتب ولم تسلم مما أصاب أمثالها إلا القرآن الكريم؛ فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، ولم يَكِل حفظه إلى غيره سبحانه من المخلوقات، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ} [الحجر: 9].

بل جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم مهيمنًا على الكتب السابقة: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: 48]، فجاء القرآن بالعقيدة الإسلامية التي اتفق عليها الأنبياء كلُّهم صافيةً نقيةً؛ ليكون ما جاء به القرآن حُجة على الناس، وشاهدًا

على تحريف الأمم السابقة لما نزل عليهم من الكتب، ومصححًا لأغلاطهم، وفاضحًا لأباطيلهم: {يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبۡحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا } [النساء: 171].

وردّ على اليهود فريتهم: {وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ } [ق: 38]، وذلك بقولهم: إن الله ﷻ لما خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع، ورد على الفريقين –اليهود والنصارى– عقيدتهم الباطلة: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ } [التوبة: 30].

يقول الشيخ حافظ الحكمي –رحمه الله– في كتابه (أعلام السنة المنشورة):

قال أهل التفسير: مهيمنًا: مؤتمنًا، وشاهدًا على ما قبله من الكتب، ومصدقًا لها، يعني: يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير؛ ولهذا يخضع له كلُّ متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، كما قال –تبارك وتعالى–: {ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ } [القصص: 52، 53] وغير ذلك. انتهى كلامه –رحمه الله.

فهداية القرآن للتي هي أقوم، معناها: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إ سرائيل الذي في قوله: {وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرۡيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ } [السجدة: 23]، ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأ سلوب من الإر شاد قويم ذي أفنان، لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم، لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا، وحسبنا مثالًا لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت.

فكلٌّ حقٍّ وصدقٌ وُصِفَتْ به الكتب السابقة قبل تحريفها وتبديلها قد حواه القرآن الكريم؛ لأنه خاتمة الكتب السماوية، ولأنه نسخ تلك الكتب السابقة، فكان طبيعيًّا أن يهيمن على ما في الكتب السابقة من صدق وهدى، ولأنه شريعة الناس السماوية إلى قيام الساعة، فلا كتاب بعد القرآن؛ من أجل ذلكَ كله كان ناسخًا لما تقدمه، ومغنيًا عنه، ومهيمنًا عليه.

الدرس الرابع: القضاء والقدر

عناصر الدرس

العنصر الأول: معنى القضاء والقدر، وحكمه، ومراتبه، وأدلته.

العنصر الثاني: الإيمان بالقدر.

العنصر الأول: معنى القضاء والقدر، وحكمه، ومراتبه، وأدلته

أولًا: معنى كلمتي القضاء والقدر:

أ. معنى القضاء:

القضاء: هو الفصل والحكم، وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر القضاء، وأصله: القطع والفصل، يقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون إذًا بمعنى الخلق.

وقال الزهري -رحمه الله تعالى-: القضاء في اللغة على وجوهٍ مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أحكم عمله أو أتم، أو أدي، أو أوجب، أو علم، أو نفذ، أو أمضي؛ فقد قضي.

ب. معنى القدر:

القدر لغةً: مصدر، تقول: قَدَرت الشيء، أقدِره، قَدْرًا وقَدَرًا: إذا أحطت بمقداره، والقدر في اللغة: القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير: هو التروية والتفكر في تسوية الأمر.

والقدر في الاصطلاح: ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعَلِمَ ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حساب ما قدَّره.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في تعريف القدر: "المراد: أن الله تعالى علم مقاديرَ الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته".

وقال السفاريني -رحمه الله تعالى-: "القدر: إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها، طبقَ ما سبق في العلم وجَرَى به القلم".

وهذه التعريفات كلها متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها.

وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته؛ فالأرض والسماء، أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما، وما بينهما، وما فيهما، كلٌّ ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدوينًا دقيقًا وافيًا.

الثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه، وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقًا للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لِمَا في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

والقدر عمومًا يدل بوضعه -كما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى، فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمهما الله تعالى-على القدرة، وعلى المقدور الكائن بالعلم، فلله تعالى القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ومن أسمائه -تبارك وتعالى-: القادر، والقدير، والمقتدر.

والقدرة صفة من صفاته ﷻ وهي من صفات الذات، فالقادر إذًا اسم فاعل من: قدر يقدر، والقدير: فعيل منه، وهو للمبالغة، ومعنى القدير: الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليها ولا ناقصًا عنها؛ ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا اللهُ ﷻ، أي: القدير، قال تعالى: {وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [فصلت: 39]. والمقتدر: مفتعل من اقتدر، وهو أبلغ من قدير، ومنه قوله تعالى: {فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ } [القمر: 55] وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-عن القدر فقال: "القدر: قدرة الله -تبارك وتعالى".

د. هل هناك تفرقة بين القضاء والقدر؟

للعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء: هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر: وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق.

يقول الحافظ ابن حجر –رحمه الله تعالى–: قال العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله. وقال في موضع آخر: القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات، التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل.

القول الثاني في التفرقة بين القضاء والقدر: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

قال ابن بطال –رحمه الله–: القضاء هو المقضي، ومراده بالمقضي هنا المخلوق، وهذا هو قول الخطابي –رحمه الله– فقد قال في (معالم السنن): القدر: اسم لما صار مقدرًا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض، أسماء لِمَا صدر من فعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هذا معناه: الخلق، كقوله تعالى: {فِى يَوْمَيْنِ وَتَقْضِى ٱلْأَمْرُ} [فصلت: 12] أي: خلقهن.

وبناءً على هذا القول يكون القضاء من الله تعالى أخصَّ من القدر؛ لأنه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

ويدل لصحة هذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى، مثل: {قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} [مريم: 21] وقال: {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [مريم: 71] وقال: {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [آل عمران: 47].

فالقضاء والقدر بناءً على هذا القول أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر.

والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فَمَن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه؛ ولذلك دائمًا العلماء يقولون: القضاء والقدر؛ لأنهما متلازمان.

ثانيًا: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والأدلة على ذلك:

أ. أدلة القرآن الكريم:

القرآن الكريم ذكر في مواطنَ متعددة القدر، ووجوب الإيمان به؛ لأن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، والنصـــوص المخبرة عن قدر الله أو الآمرة بالإيمان بالقدر كثيرة، وقد صرح بها الكتاب العزيز في نحو مائة آية؛ فمن ذلك قول الله –تبارك وتعالى–: {إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ } [القمر: 49] وقوله: {مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا } [الأحزاب: 38] وقوله: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ } [الأنفال: 44] ، ففي هذه الآيات وفي غيرها إثباتٌ لقدر الله ﷻ أو أمر بالتسليم للقدر.

ومن الآيات الدالة على القدر أيضًا: ما ورَدَ من آيات المشيئة والإرادة في القرآن الكريم؛ لأن المشيئة مَرتبة من مراتب القدر، وذلك مثل ما ورد في قول الله –تبارك وتعالى–: {وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة: 13] وكقول الله –جل ذكره–: {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ } [يونس: 99] وكقوله ﷻ في الإرادة: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام: 125].

ب. أدلة السنة:

ومن أدلة السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر أحاديث كثيرة؛ ففي (صحيح مسلم) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام الرسول ﷺ لما جاء وسأله عن الإيمان، وعن الإسلام، وعن الإحسان، ولما أجاب النبي ﷺ جبريل عن الإيمان، قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره)) فذكر هذا من أصول الإيمان، ومن أركانه.

وأخرج مسلم والترمذي عن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)).

كما أخرج أبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنه قال لابنه عند الموت: "إنك لن تجد حقيقةَ الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقومَ الساعة))، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن مات على غير هذا؛ فليس مني))".

والنصوص في ذلك كثيرة جدًّا؛ فإن النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيئته وخلقه تدل على قدره -تبارك وتعالى- فالقدر إذًا يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيئته وخلقه.

ثالثًا: مراتب القدر وأدلتها:

يجب أن نعلم -أولًا- أن مراتب الإيمان بالقضاء والقدر -التي مَن لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر- أربع:

المرتبة الأولى: علم الرب ﷻ بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها.

المرتبة الأولى: علم الله بالأشياء قبل كونها:

والعلم الـ سابق –أي: علم الله ﷻ–قد اتفق عليه الر سل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليه جميع الـ صحابة ومن تبعهم من الأمة، و لم يخالف في ذلك إلا مجوسُ هذه الأمة، والله ﷻ قد ذكر في كتابه الكريم ما يدل على علمه الواســـع المحيط بكل ما كان، وبكل ما ســـيكون، وبكل ما لم يكن لو كان كيف يكون، بتفصيلاته وما إلى ذلك.

ومن الأدلة القرآنية على ثبوت علم الله ﷻ السابق لجميع الأشياء قبل كونها: ما قاله ﷻ في رده على الملائكة، حينما قال لهم: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 30]

.

قال مجاهد –رحمه الله–: عَلِمَ من إبليس المع صية وخلقه لها، وقال قتادة –رحمه الله–: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل، وقوم صالحون، وساكنو الجنة، وقال ابن م سعود رضي الله عنه: "أعلم ما لا يعلمون من إبليس"، وقال مجاهد: علم من إبليس أنه لا يـ سجد لآدمَ.

وقال تعالى في إثبات علمه الـ سابق لكل شيء: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّـاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِـبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ } [لقمان: 34].

وفي (الصـــحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينـ صرانه أو يمجـ سانه؛ كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحـ سون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟ قالوا: يا ر سول الله، أفرأيتَ مَن يموت منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين)).

هذا هو الشـــاهد من هذا الحديث، وهو أن النبي ﷺ أخبر بأن الله ﷻ يعلم أزلًا ما العباد فاعلون؛ حيث قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)).

وفي حديث الاستخارة ما يؤكد ثبوت هذا العلم لله ﷻ، ألا إنه بكل شيء عليم، وإنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وفي حديث الا ستخارة هذا قول النبي ﷺ: ((اللهم إني أ ستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشـــي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويـ سره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعا شي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به)).

فيبين هذا الحديثُ علمَ الله ﷻ بما لا يعلمه الإنســـان، وأنه يعلم في الأزل ما الذي ينفع الإنسان ويصلحه.

المرتبة الثانية: الكتابة:

الكتابة هي أن الله ﷻ كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ } [الأنبياء: 105، 106] والزبور هنا: جميع الكتب المنزلة من ال سماء ولا يختص بزبور داود، والذكر: أم الكتاب الذي عند الله ﷻ، والأرض: الدنيا، وعباده الصـــالحون: هم أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي عَلم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك وهو في مكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومـ ساكنهم، و شتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم –تبارك وتعالى– أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض مِن الكفار، ثم كتب ذلك بعد ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صـــحته: ((كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عر شه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء)) فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تـ صير لأمة محمد ﷺ، والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قول الله تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: 43، 44].

وقال تعالى في إثبات كتابته لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ } [يس: 12] فجمع بين الكتابين؛ الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، جَمَعَ بينهما في هذه الآية، فأخبر أنه يحييهم بعدما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابتها على ذلك فقال: { وَنَكْتُبُ } ما قدموا من خير أو شر فعلوه في حياتهم، { وَءَاثَـٰرَهُمْ }: ما سنوه من سنة خير أو شر، فاقتدي بهم فيها بعد موتهم، وقال ابن عباس في رواية عطاء: "آثارهم: ما أثروا من خير أو شر". فإن قلت: قد استُفيد هذا من قوله: { وَنَكْتُبُ }، فما أفاد قوله: { وَءَاثَـٰرَهُمْ } على قوله؟

قلت: أفادت فائدة جليلة وهي أنه ﷻ يكتب ما عملوه، وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، والمقصود أن قوله: { فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ } هو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، وهذا يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها.

وقال –جل ذكره–: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } [الأنعام: 38] قال: { مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ } وقد اختلف في الكتاب ههنا: هل هو القرآن أم اللوح المحفوظ؟ على قولين:

فقالت طائفة: المراد به القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص، أي: ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، وهذا كقول الله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: 89].

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذه إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكأن هذا القول أظهر في الآية والسياق .

وقد قال تعالى: {حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الزخرف: 1-3] ثم قال بعدها: {وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ } [الزخرف: 4]، ما المراد بـــ"أم الكتاب" المذكورة في هذه الآية؟ قال ابن عباس {: "في اللوح المحفوظ المقروء -أي: الذي نقرؤه- عندنا"، قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ } [البروج: 21، 22].

وأجمع الـ صحابة والتابعون وجميع أهل الـ سنة والحديث: أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن الكريم على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فـــ: {تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد: 1] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب، وقوله: { فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ } يجوز أن تكون من صلة أم الكتاب أي: إنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر إنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الإتقان والارتفاع، والشرف والإحكام.

وفي (الـ صحيحين) من حديث ابن عباس { قال: "ما رأيت شبهًا أ شبه باللمم مما قال أبو هريرة، إلا النبي ﷺ قال: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، وأدرك ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللســـان النطق، والنفس تتمنى وتشـــتهي، والفرج يصـــدق ذلك ويكذبه))، والشاهد من الحديث: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا)).

وفي (الـ صحيحين) أيـ ًضا من حديث ابن الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رســـول الله ﷺ: ((لما قضـــى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي)).

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة:

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الر سل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان تدل عليها، وليس في الوجود موجبٌ ومقتضٍ إلا م شيئة الله وحده دون سواه، فما شاء كان وما لم يـ شأ لم يكن، فلا حركة ولا سكون في هذا الكون إلا بمشيئته سبحانه دون سواه، ولا يكون ولا يقع في مُلكه إلا ما يريد، وهذا هو عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمـ سلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وخالفهم في ذلك مَن خالف الر سل، و سلك طريق أهل الـ ضلال ممن نفوا م شيئة الله ﷻ بالكلية؛ كالفلا سفة وأتباعهم، أو مَن نَفَى م شيئته في أفعال العباد كالمعتزلة القدرية الذين قالوا بأن الله ﷻ لم يشأ أفعال العباد؛ لشُبه قامت في أذهانهم.

والقرآن الكريم، والسنة المطهرة أثبتَا مشيئةَ الله الكاملة الشاملة العامة المطلقة؛ فمثلًا قول الله -تبارك وتعالى-: { تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّـهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّـهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّـهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّـهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253] فهذه آية واحدة ذُكرت فيها المـ شيئة مرتين ، وقال الله تعالى أيـ ًضا: { قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّـهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ} [آل عمران: 40] وقال سـبحانه: { وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [الأنعام: 35].

كما أخبر ﷻ عن أنبيائه ورسله أنهم كانوا يقرون لربهم بهذه المشيئة؛ فنوح عليه السلام يقول لقومه: { دْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّـهِ يَجْحَدُونَ} [هود: 33] وإمام الحنفاء وأبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يقول

لقومه: { وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 80] وقال الذبيح إسماعيل لأبيه مثبتًا مشيئة الله ﷻ: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [الصافات: 102] وقال خطيب الأنبياء شعيب لقومه: { قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ} [الأعراف: 89] وقال يوسف الصديق عليه السلام لأبيه وإخوته: { فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ} [يوسف: 99]، وقال قوم موسى له: { قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۚ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ} [البقرة: 70]، وقال رب العزة والجلال لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه، خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم–:{ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا} [الكهف: 23، 24].

وهذه الآيات كلها تثبت مشيئة الله ﷻ، وتتضمن أيضًا الرد على طائفتي الضلال نُفاة المشيئة بالكلية، وهم الفلاسفة ومَن تبعهم على ذلك، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهؤلاء هم القدرية المعتزلة.

وهو سبحانه وتعالى تارةً يخبر أن ما في الكون بمشيئته، وتارة يخبر أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عُصِيَ، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة، وقد تضمن كل ذلك أن كل واقع إنما هو بمشيئته سبحانه، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا هو حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه "رب العالمين" وكونه القيوم القائم بتدبير عباده؛ فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة، إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالكَ غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره سبحانه.

وكما دلت الآيات القرآنية السابقة على ذلك، دلت أيضًا الأحاديث الصحيحة على ذلك؛ فقد أثبتت الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ أن كل شيء وُجد في هذا الكون، أو يوجد إنما هو بمشيئة الله ﷻ وحده دون سواه.

ففي (صحيح البخاري) من حديث أبي مو سى، عن النبي ﷺ أنه قال: ((ا شفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء))، وفي (صحيح البخاري) أيضًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حين طرقه النبي ﷺ وفاطمة ليلًا، وقال لهما ﷺ: ((ألا ت صليان؟ فقال علي: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا)) والشاهد: ((فإذا شاء أن يبعثنا))؛ لأن في هذا إثباتًا لمشيئة لله ﷻ.

وفي (البخاري) أيضًا في قصة نومهم في الوادي، أن النبي ﷺ قال: ((إن الله قبض أرواحكم حين شـــاء، وردّها حين شـــاء)) وهذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب (التوحيد) من صحيحه، تحت باب في المشيئة والإرادة: {وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّـــــهُ إِنَّ ٱللَّ ـــهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: 30]، وهذا واضح من ترجمة الإمام البخاري – رحمه الله تعالى– لهذا الحديث بهذا القول.

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الـ ضعيف وفي كل خير، احرِصْ على ما ينفعك وا ستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كَذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان))، والشاهد من الحديث: ((ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل))، وهذا يقال لكل مَن ندم على أمر فاته مثلًا وتمنى أن يكون غيره، وليعلم كل فرد أن كل واقع إنما هو بمـ شيئة الله ﷻ؛ ولذلك نجد أن النبي ﷺ كان ير سخ هذا المفهوم وهذا المعنى بين أصحابه، فقال ﷺ للأعرابي الذي عاده من الحمى: ((لا بأس، طَهور إن شاء الله)) وقد روى ذلك أيضًا البخاري في باب: "المشيئة والإرادة".

هذه هي المرتبة الثالثة وهي مرتبة المشيئة، وهذه هي الأدلة عليها.

د. المرتبة الرابعة: خلق الله للأعمال وتكوينه لها، وإيجاده لها:

وهذا أيضًا أمر متفق عليه، اتفقت عليه الكتب الإلهية والفطر والعقول، وقد قررت النصوص القرآنية والنبوية هذا الأمر كذلك، وهو أن الله ﷻ خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوّنهم وأوجدهم، فهو الخالق، وما سواه مربوب مخلوق، قال تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ} [الرعد: 16] وقال سبحانه: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ} [الحجر: 86] وقال: {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: 1] وقال سبحانه: {وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 33].

والنصوص في هذا كثيرة طيبة، وهي تدل على أن أفعال العبد لا تخرج عن غيرها من المخلوقات، فكل ما هو في الكون إنما هو بخلق الله وإيجاده لها، وقد علم الله ﷻ ما سيخلقه من عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى وقدر عليهم، وقد عمل العباد على النحو الذي شاءه الله فيهم، وهدى سبحانه مَن كتب الله له السعادة وأضل من كتب عليه الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها الآن تكفي في الدلالة على ما ذكرناه وقررناه، ومع ذلك فهناك نصوص أخرى كثيرة أصرح في الدلالة على هذه المسألة، وهي أن الله خالق أفعال العباد.

ومن ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96] وقال تعالى: و{ٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ} [فاطر: 11].

وقد جاءت أحاديث كثيرة أيضًا تواتَرَ معناها تؤيد هذه الآيات القرآنية، وتدل على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاء، وقد أخبرت النصوص مع ذلك أن القدر لا يمنع من العمل، فأمر بالعمل: ((اعملوا، فكل ميسر لِمَا خلق له))، ومما يؤيد ذلك: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله ﵁ قال: ((جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله ﷺ بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: لا، بل فيما جَفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ فقال ﷺ: اعملوا، فكل ميسر)) وفي رواية: ((كل عامل ميسر لعمله)).

وقد علم الله ﷻ أهل الجنة من أهل النار؛ لأنه هو خالق أفعالهم، فقد روى البخاري عن عمران بن حصين ﵁ قال: ((قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: نعم، فقال: فلِمَ يعملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له، أو يسر له)).

وروى مسلم في صحيحه، عن علي ﵁ قال: ((كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعَدَ وقعدنا حولَه ومعه مخصرة، فنكّس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما مِن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتب شقيةً أو سعيدةً، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: مَن كان مِن أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومَن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا، فكل ميسر. أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهلُ الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ} [الليل: 5- 10].

العنصر الثاني: الإيمان بالقدر

قواعد في مسألة القدر:

القاعدة الأولى: وجوب الإيمان بالقدر، كما تقدم ذكر الأدلة على ذلك.

القاعدة الثانية: الاعتماد في معرفة القدر وحدوده، وأبعاده على الكتاب والسنة، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس؛ فالعقل الإنساني لا يستطيع بنفسه أن يضع المعالم والركائز التي تنقذه في هذا الباب من الانحراف والضلال، والذين خاضوا في هذه المسألة بعقولهم ضلوا وتاهوا؛ فمنهم من كذب بالقدر، ومنهم من ظن أن الإيمان بالقدر يلزم القول بالجبر، ومنهم من ناقض الشرع بالقدر، وكل انحراف من هذه الانحرافات سبب مشكلات في واقع البشر وحياتهم، ومجتمعاتهم؛ لأن الانحراف العقائدي لا شك يسبب انحرافًا في السلوك وواقع الحياة.

وقد ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى-عن أبي المظفر السمعاني -رحمه الله-أنه قال: " سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لِمَا علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب".

القاعدة الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر:

وذلك لأن بعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها، وبعضها الآخر لا يستوعبها إلا بصعوبة كبيرة. وقد يقال: أليس في هذا النهج حَجْر على العقل الإنساني؟

والجواب: أن هذا ليس بحجر على الفكر الإنساني، بل هو صيانة لهذا العقل من أن تتبدد قواه في غير المجال الذي يحصل التفكر فيه، إنه صيانة للعقل الإنساني من العمل في غير المجال

الذي يحســـنه ويبدع فيه؛ لأن العقل له درجة اســـتيعاب، وله مجاله في النظر لا يتعداه، والإ سلام قد و ضع بين يدي الإن سان معالَم الإيمان بالقدر، فلا نحتاج إلى عقل أو قياس أو بحث، أو خوض أو تعمق أو نظر؛ لأن الإيمان بالقدر يقوم على أن الله علم ما هو كائن وكتبه وشاءه وخلقه، واستيعاب العقل الإنساني لهذه الحقائق سهل ميسور، ليس فيه صعوبة ولا غموض أو تعقيد؛ أما البحث في سر القدر والغوص في أعماقه، فإنه يبدد الطاقة العقلية ويهدرها.

إن البحث في كيفية العلم والكتابة والمشـــيئة والخلق بَحْث في كيفية صـــفات الله، وكيف تعمل هذه الـ صفات، وهذا أمر محجوب علمه عن البـ شر، وهو غَيْب يجب الإيمان به، ولا يجوز السؤال عن كنهه.

ويقول الإمام الطحاوي –رحمه الله تعالى–: "وأ صل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرســـل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان وسُـــلّم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا وو سو سةً؛ فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: {لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ} [الأنبياء: 23] فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب".

هذا كلام الإمام الطحاوي –رحمه الله–وهو وا ضح بالاقتـ صار على الكتاب والـ سنة، وهذا هو منهج أهل الـ سنة والجماعة؛ ولذلك قال شارح (الطحاوية) –رحمه الله–معلقًا على كلام الطحاوي "أ صل القدر سر الله في خلقه": وهو قوله: أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى، قال علي رضي الله عنه: "القدر سر الله، فلا تكشفه".

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله–: من الـ سنة اللازمة الإيمانُ بالقدر خيره و شره، والتصـــديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، ولا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ أما مَن تعمق وخاض وضرب كتاب الله بعضَه ببعض؛ تاه وحار، ولم يصل إلى شاطئ السلامة.

والنبي ﷺ قد حذَّرَ أمته من أن تسلك هذا المسار، أي: البحث والخوض وضرب كتاب الله بعضه ببعض، وتضرب في هذه البيداء.

ففي (سنن الترمذي) بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرّ وجهه ﷺ حتى كأنما فُقئ في وجنتيه الرمان، فقال: أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك مَن كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه)) وهذا منهج سليم واضح، يقرره أهل السنة والجماعة في كل مسائل الاعتقاد.

جـ. بيان مدى إدراك العقل للعلل والأوامر والأفعال:

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن لأوامر الله ومخلوقاته عللًا وحكمًا، فإنه لا يأمر إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة، وبعض هذه الحكم تعود إلى العباد وبعضها يعود إلى الله تعالى، فما يعود إلى العباد هو ما فيه خير لهم وصلاح في العاجل والآجل، وما يعود إلى الله -تبارك وتعالى- هو محبته أن يُعبد ويطاع، ويتاب إليه، ويرجع ويخاف منه، ويُتوكل عليه، ويجاهد في سبيله، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] وقال سبحانه: {أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: 36] وقال: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: 115]، والنصوص الدالة على أن لله حكمًا في خلقه وأمره كثيرة وافرة يصعب حصرها، والعقول البشرية تستطيع أن تدرك شيئًا من هذه الحكم.

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن العقل يستطيع أن يدرك ما في الأفعال من حسن وقبح، فالعقول تدرك أن الظلم والكذب والسرقة وقتل النفوس قبيح، وأن العدل والصدق وإصلاح ذات البين وإنقاذ الغرقى حسن وجميل.

والحكم الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم، والظلم يشتمل على فسادهم، فهذا النوع حسن وقبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع حسن ذلك وقبحه، لكن لا يلزم في العقول أن الإنسان

معاقب على فعل قبيح من هذا النوع في الآخرة إن لم يرد الـ شرع بذلك، ومن ادعى أن الله يمكن أن يعاقب العباد على أفعالهم القبيحة من الـ شرك والكفر ونحو ذلك من غير إر سال رسول، فقد أخطأ.

النوع الثاني: أن الله ﷻ إذا أمر بـ شيء صار حـ سنًا، وإذا نهى عن شيء صار قبيحًا، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبح بخطاب الشارع.

النوع الثالث: أن يأمر الـ شارع بـ شيء امتحانًا واختبارًا، كما أمر الله إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل؛ فالشارع ليس له قصد في ذبح الابن، ولكنه ابتلاء واختبارٌ.

فالحكماء وجمهور أهل العلم فأثبتوا الأقـ سام الثلاثة المذكورة سابقًا، فأفعال العباد معللة، وأن العقل بإمكانه أن يدرك ما في الأفعال من حسـن وقبح -يفتح الباب أمام العقول الإنسانية لتبحث في الحكم الباهرة التي خلق الله من أجلها المخلوقات، و شرع من أجلها ما شرعه من أحكام، وهو باب كبير يحـ صل العباد منه على علم عظيم، يثبت الإيمان ويزيد اليقين، ويعرف العباد بإبداع الخالق العظيم الذي أحـسن كلَّ شيء خَلْقه، وكيف لا يكون الأمر كذلك، وقد وعد الحق -تبارك وتعالى- أن يري عباده من آياته العظيمة ما يظهر صدقَ ما جاء به الر سول ﷺ وأنزله في الكتاب، كما قال تعالى: { سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـ ـٰفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

د. نماذج من أقوال العلماء في الإيمان بالقدر:

نود أن نذكر نماذج من أقوال العلماء في الإيمان بالقدر؛ ليعلم الجميع أن سـلف هذه الأمة كانوا يعتقدون الحق، الذي جاء في كل باب من أبواب الاعتقاد وغيره.

ولذلك سنذكر لبعض الأئمة أقوالًا، كنماذج من أقوال العلماء المتقدمين في هذا الباب من أبواب الإيمان، وهو ركن منه.

1. الإمام ابن قتيبة -رحمه الله-:

يقول –رحمه الله–: "وعَدْل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور: كيف خلق، وكيف قدر، وكيف أعطى، وكيف منع؟ وأنه لا يخرج من قدرته شـــيء، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دَيْن لأحد عليه ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل وإن منع فبعدل، وأن العباد يستطيعون ويعملون ويُجزون بما يكسبون، وأن لله لطيفة يبتدئ بها مَن أراد، ويتفضل بها على من أحب، ويوقعها في القلوب، فيعود بها إلى طاعته، ويمنعها مَن حقت عليه كلمته، فهذه جملة ما ينتهى إليه في مسائل القدر، وما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله ﷻ، وما سوى ذلك مخزون عنه".

2.الإمام محمد بن الحسن الآجري –رحمه الله:

يقول في كتابه (الشريعة):

"مذهبنا في القدر أن نقول: إن الله ﷻ خلق الجنة وخلق النار، وخلق لكل واحدة منهما أهلًا، وقسم بعزته أنه يملأ جهنمَ من الجنة والناس أجمعين، ثم خلق آدم عليه السلام واستخرج من ظهره كل ذريةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعلهم فريقين؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير، وخلق إبليس وأمره بالسجود لآدم عليه السلام ، وقد علم الله أنه لا يسجد بالمقدور الذي قد جرى عليه؛ من الشقاوة التي سَبقت في علم من الله ﷻ، لا معارض لله الكريم في خلقه وحكمه، يفعل في خلقه ما يريد؛ عدلًا من ربنا، قضاؤه وقدره، وخلق آدم وحواء –عليهما السلام– للأرض، أسكنهما الجنة وأمرهما أن يأكلا منها رغدًا ما شاءَا، ونهاهما عن شجرة واحدة ألا يقرباها، وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة، فهو –تبارك تعالى– في الظاهر ينهاهما وفي الباطن من علمه قد قدر عليهما أنهما يأكلان منها، {لَا يُسْئَـــلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ }.

لم يكن لهما بد من أكلهما سببًا للمعصية، و سببًا لخروجهما من الجنة، إذ كانا للأرض خلقًا، وأنه سيغفر لهما بعد المعصية، كل ذلك سابق في علمه، لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه إلا وقد جرى مقدوره به، وأحاط به علمًا قبل كونه أنه ســـيكون، خلق الخلق كما شاء لِمَا يشاء، وجعلهم شقيًّا و سعيدًا قبل أن يخرجهم إلى الدنيا وهم في

بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم من الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كتب له وعليه".

وهذه كلمة من هذا الإمام دقيقة للغاية، تبين أن كل ما كان في الكون من خير و شر، وبر ومعروف، وظلم ومعصية ومنكر، إنما هو بقضاء الله ﷻ وقدره، وإن كان سبحانه لا يحب المعاصي ولا يرضَى لعباده الكفر.

ولذلك بعدما قال هذا الإمام: "أحب الطاعة من عباده وأمر بها، فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونَهَى عن المعاصـــي وأراد كونها من غير محبته منه لها" قال عقب ذلك: ولا للأمر بها، تعالى ﷻ أن يأمر بالفحشاء أو يحبها، وجل ربنا ﷻ أن يجري في ملكه ما لم يرد أن يجري، أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه.

قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وبعد أن يخلقهم، قبل أن يعملوا قضاءً وقدرًا، قد جرى القلم بأمره ﷻ في اللوح المحفوظ بما يكون من بر أو فجور، يثني على مَن عمل بطاعته من عبيده.

ويضيف العمل للعباد، ويعدهم عليه الجزاء العظيم، ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما ا ستوجبوا به منه الجزاء: { سَابِقُو إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّـــهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّـــهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّـــهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} [الحديد: 21].

وكذلك ذم قومًا عملوا بمعصيته وتوعدهم على العمل بها، وأضاف إليهم العمل بما عملوا، وذلك بمقدور جرى عليهم .

وبعد أن ذكر ذلك، قال محمد بن الحسن –رحمه الله تعالى–: هذا مذهبنا في القدر.

الدرس الخامس: مسائل في القدر

عناصر الدرس

العنصر الأول: بيان مراتب الهدى

العنصر الثاني: أقسام الإرادة.

العنصر الثالث: ثمرات الإيمان بالقدر.

العنصر الأول: بيان مراتب الهدى

أ. ذِكْر مراتب الهدى:

الكلام في الهداية والإ ضلال –وهو مبحث من مباحث القدر–من أهم المسائل التي يجب أن يعتني بها العبد المؤمن؛ لأن أفـ ضل ما يقدم الله لعبده وأجلّ ما يقـ سمه له هو الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه هو الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقت ر سل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم، على أنه سبحانه يـ ضل من يـ شاء ويهدي من يـ شاء، وأنه من يهده الله فلا مـ ضل له، ومن يـ ضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضالّ أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعلُه ﷻ وقدرُه، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبُه.

هذه كلمة موجزة عن الهدى والضـــلال وأهمية معرفة هذا المبحث، والتأكيد على أن الأمر كله بيد الله ﷻ؛ فهو يضل من يشاء ويهدي مَن يشاء.

أما مراتب الهدى؛ فهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الهدى العام، وهو هداية الله ﷻ كل نفس إلى مـ صالح معا شها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه؛ لأن هذه المرتبة تشمل كلَّ مخلوق، فقد هدى الله ﷻ ما خلقه من كائنات إلى ما يقوم به حياتها، وما يتمكن به من الحصول على معاشه.

المرتبة الثانية: هي بمعنى الهدى والدلالة والتعليم، والدعوة إلى مـ صالح العبد في ميعاده، وهذا خاص بالمكلفين.

فالمرتبة الأولى أو القســـم الأول هو الهداية بالمعنى العام، وهذه أخص من الأمر الأول؛ لأن الأمر الأول يشـــمل كل كائن، أما هذا فهو يتعلق بالمكلفين الذين بُيِّن لهم الحق، ونزلت عليهم الكتب، وأرسلت لهم الرسل.

المرتبة الثالثة: هي الهداية المستلزمة للاهتداء، وهذه هي هداية التوفيق والمشيئة، أي: مشيئة الله بعبده الهداية، وخلق دواعي الهدى، وإرادة الهدى له، وما إلى ذلك.

المرتبة الرابعة: هي هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار.

والمرتبة الأولى هي أعم المراتب، وقد نص الله تعالى عليها في كتابه فقال: { سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [الأعلى: 1- 3] فهنا نجد أن الله ﷻ ذكر بعضَ أمور عامة؛ هي: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، وهذه هي الهداية العامة لكل الكائنات.

ب. تفصيل القول في مرتبتي الهداية والإرشاد والبيان، وهداية التوفيق والإلهام:

هاتان المرتبتان هما صلب الحديث في هذه المسألة، فمرتبة الهداية والإرشاد والبيان للمكلفين، هذه مرتبة لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطًا فيها أو جزءَ سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط المسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي؛ إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، وهذا واضح من بعثة الأنبياء والمرسلين، وإنزال الكتب من عند الله رب العالمين.

ولا يشترط عندما يبين النبي أو الرسول ﷺ أن يتبع الناس الحقَّ ويسلكوا طريق الرشاد، بل قد يتخلف ذلك وإن كان البيان شرطًا لا بد منه؛ كي تقوم الحجة على العباد، ولكي يكون الكلام سليمًا حينما نقول: وإن كان البيان شرطًا في حصول وتحقيق هذا التوفيق واتباع الحق؛ ولذلك قال الحق -تبارك وتعالى- في بيان هذا النوع من الهداية: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت: 17] وقال -جل ذكره-: {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة: 115] فهداهم هدى البيان والدلالة، فلم يهتدوا، فأضلهم؛ عقوبةً لهم على ترك الاهتداء أولًا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا فعله سبحانه في كل مَن أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه، كما قال تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: 53] فقال -جل ذكره-: {كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُو أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} [آل عمران: 86].

وهذه الهداية التي ذكرناها وذكرنا الأدلة عليها الآن -هداية الإرشاد والبيان للمكلفين، والدلالة إلى طريق الحق والصواب- هي التي أثبتها الله لرسوله ﷺ فقال: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52]، ونَفَى عنه تلك الهداية الموجبة -هداية التوفيق والإلهام- وذلك كما جاء في قوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} [القصص: 56].

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ لأن التي قبلها هداية عامة، وهذه هداية تخص المكلفين، وهي حُجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: {مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15] وقال -جل ذكره-: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165] وقال سبحانه: {أن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ} [الزمر: 56، 57].

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه؟

قيل في الجواب على ذلك: حجته ﷻ قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الر سل لهم وإراءتهم الـ صراط المـ ستقيم حتى كأنهم يـ شاهدونه إعلانًا، وقد أقام لهم أ سباب الهداية ظاهرة وباطنة، و لم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومَن حال بينهم وبينها بزوال عقل أو

صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله؛ فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهُدى ولم يحل بينهم وبينه.

نعم، يقال: قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم، والإقبال بقلوبهم إليه، ولم يحل مع ذلك بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه -وهو فعله ومشيئته وتوفيقه- فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه وحِيل بينهم وبينه، فتأمل هذا الموضع واعرف قدره؛ لأنه يحل إشكالات كثيرة متعددة.

إذًا: هذه الهداية -هداية البيان والإرشاد والدلالة إلى طريق الحق والخير والصواب- خاصة بالمكلفين، ثابتة للأنبياء والمرسلين، كما أثبتها الله ﷻ في كتابه لأنبيائه ورسله، وآخرهم خاتمهم محمد ﷺ .

المرتبة الأخرى: مرتبة هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل:

فالهداية بمعنى الدلالة لا تستلزم حصول المراد، فالناس جميعًا قد يسّر الله لهم هذه الهداية ببعثة أنبيائه ومرسليه، ولكنهم لم يوفقوا جميعًا لاتباعهم؛ لأنها لا تستلزم حصول الهداية لجميع الناس؛ أما هداية التوفيق والإلهام وخَلْق المشيئة في القلب -أي: خلق الإيمان في القلب ومشيئته- فهذه تستلزم وجودَ الفعل المراد، وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ لأن هداية البيان والإرشاد والدلالة عامة للمكلفين جميعًا، أما هداية التوفيق والإلهام وخلق الإيمان في القلب، فهذه خاصة بصفوة من الناس رضي الله عنهم؛ ولذلك هذه المرتبة أخص من المرتبة التي سبق ذكرها.

فمرتبة الهداية والتوفيق والإلهام يراد بها خلق الإيمان في القلب، وهذا يستلزم أمرين؛ أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى، والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله ﷻ؛ فالله ﷻ هو الهادي والعبد هو المهتدي، قال تعالى: {مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ} [الأعراف: 178] ولا سبيلَ إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل لا شك فعل العبد؛ ولهذا قال تعالى: {إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ} [النحل: 37] وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرِص عليه، فالهداية بمعنى خلق الإيمان في القلب والتوفيق خاصة

برب العزة والجلال، ومنتفية عن غير الله ﷻ، فهي منتفية عن النبي ﷺ ولو حرص عليها كما قال الله له، ولا تكون لأحد غير الله -تبارك وتعالى- فالله ﷻ إذا أ ضلّ عبدًا لم يكن لأحد سبيل بحال من الأحوال إلى هدايته، كما قال تعالى: {مَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأعراف: 186]، وقال تعالى: {وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام: 39]، وقال تعالى{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: 8].

وقال تعالى: {أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: 23]

العنصر الثاني: أقسام الإرادة

الإرادةُ في كتاب الله تعالى نوعان:

1. إرادة قدرية خلقية أو كونية.
2. إرادة دينية شرعية.

أما **الإرادة الكونية القدرية:**

تعريفها: هي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات-التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاء الله كان يعني: أنه إذا وقع شيء وأراده رب العزة والجلال و شاءه وقع لا محالة، وما لم يرده وما لم يشأه سبحانه لا يكون، فلا يقع في ملك الله ما لا يريده رب العزة والجلال.

وهذه الإرادة إرادة شـــاملة لكل ما يقع في الكون، لا يخرج عنها أحد من الكائنات بحال، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر،

والبر والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث منها.

أدلتها:

وهذه الإرادة هي ما جاءت في مثل قول الله تعالى: {فَمَن يُرِدِ ٱللَّـهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 125]، وأيضًا كما جاء في قوله: و{لَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [هود: 34].

وأما **الإرادة الشرعية الدينية:**

تعريفها: هي المتضمنة للمحبة والرضا، وأما الإرادة القدرية الكونية فهي المشيئة العامة الشاملة لجميع الموجودات، وهذه لا بد أن يقع مرادها، ولا يشترط فيها أن تتضمن المحبة والرضا.

الأدلة:

الإرادة الشرعية الدليل عليها من القرآن الكريم، قول الحق -تبارك وتعالى-:{ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة: 185] وهنا لو تأملنا ورجعنا إلى النظر في هذه الآية نجد أن الله أراد اليسر ولم يرد العسر، ومع ذلك وقع العسر عند بعض الناس ولم يكن للجميع يسر، فهذا النوع من الإرادة – الإرادة الدينية الشرعية–لا يستلزم وقوع المراد، إلا إذا تعلق به النوع الثاني من الإرادة – أي: الإرادة الكونية القدرية–.

وهذه الإرادة –وهي الدينية الشـــرعية–تدل دلالة واضـــحة على أنه ﷻ لا يحب الذنوب والمعا صي، والـضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا ير ضاها، وإن كان شاءَها خلقًا وإيجادًا، إنه سبحانه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية وير ضاها، ويثيب عليها أ صحابها ويدخلهم الجنةَ، وين صرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وين صر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين.

الفرق بين الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية من حيث الحكم من وجهين:

الوجه الأول: أن الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية لا يلزم فيها وقوع المراد، فقد يريد الله الشيء شرعا ولا يقع.

الوجه الثاني: الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله، والإرادة الكونية تكون فيما يحبه وما لا يحبه. فمثلا الإيمان والعمل الصالح مراد لله شرعا لا كونا؛ لأن من الناس من لم يؤمن ومن لم يعمل صالحا، ولو كان مرادا لله كونا وقدرا للزم أن يؤمن الناس كلهم ويعملوا صالحاً.

والمخلوقات مع كل من الإرادتين أربعة أقسام:

الأول: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصـــالحة، فإن الله ﷻ أراده إرادة دين و شرع، وأمر به وأحبه ور ضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك ما كان.

ومثال هذا القـ سم الأول: إيمان أبي بكر رضي الله عنه، فأبو بكر الـ صديق رضي الله عنه ر ضي الله منه الإيمان وأحبه وأمره به كما أراده كونًا وقدرًا، فاجتمعت فيه الإرادتان.

الثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصـــالحة فعـ صى ذلك الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضـــاها وقعت أم لم تقع، وقد سبق أن قلنا في هذه الإرادة بأنها لا تستلزم وقوع المراد.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصـــي، فإنه ﷻ لم يأمر بها، ولم يرضـــها، ولم يحبها؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضَى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لَمَا كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال وهو كفر أبي جهل، فكفر أبي جهل أراده الله كونًا وقدرًا، وإن لم يرده دينًا وشرعًا.

الرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، أي: لم تتعلق به لا الإرادة الكونية ولا الإرادة الشرعية، فهذا ما لم يقع ولم يوجد من أنواع المباحات والمعاصي، والسعيد مِن عباد الله من أراد الله منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشقي من أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا. وأهل السنة والجماعة الذين فقهوا دين الله حق الفقه ولم يضربوا كتاب الله بعضَه ببعض، علموا أن أحكام الله في خلقه تجري وفق هاتين الإرادتين.

العنصر الثالث: ثمرات الإيمان بالقدر.

مَن تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام؛ وجد لها ثمارًا كثيرة طيبة، كانت ولا زالت سببًا في صلاح الفرد والأمة:

أولها: الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، وأن الشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هذا القول فرارًا من نسبة الشر إلى الله -تبارك وتعالى- والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والذين زعموا من هذه الأمة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها، أثبتوا خالقَيْن من دون الله -تبارك وتعالى- ولا يتم توحيد الله إلا لِمَن أقر أن الله وحدَه هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وأن إرادته ﷻ ماضية في خلقه، فما شاء

كان وما لم يشـــأ لم يكن، فكل المكذبين بالقدر لم يوحِّدوا ربهم، و لم يعرفوه حق معرفته، والإيمان بالقدر مفرق طرق بين التوحيد والشرك.

الثمرة الثانية: الاستقامة على منهج الله، سواء كان ذلك في السراء والضراء:

لا شك أن العباد بما فيهم من قصور و ضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: {إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ} [المعارج: 19- 22]، والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره، كما قال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّـــهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْــــَٔرُونَ} [النحل: 53]، ولا يكون حاله حالَة قارون الذي بَغَى على قومه بسبب كثرة النعم، ففي السراء والضراء إنما هو بتقدير الحق -تبارك وتعالى- فيستقيم على منهج الله ﷻ.

الثمرة الثالثة: أن الإيمان بالقدر يجعل المؤمن دائمًا على حذر:

المؤمنون بالقدر دائمًا على حذر كما قال تعالى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّـــهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّـــهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـــٰسِرُونَ} [الأعراف: 99] فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، والفتن التي توجه سهامها إلى القلوب كثيرة، والمؤمن يحذر دائمًا أن يأتيه ما يضله، كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول؛ بل يدفعه إلى المجاهدة الذاتية للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات.

الثمرة الرابعة: مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت:

إذَا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب، وآمَن أن الأرزاق والآجال بيد الله؛ فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في مَيْدان النزال، غيرَ هيابين ولا وجلين، وكان هذا الإيمان من أعظم ما

ثبّت الله به قلوبَ الصالحين في مواجهة مَن ظلمهم، فكانوا لا يخافون في الله لومةَ لائم؛ لأنهم يعلمون أن الأمرَ بيد الله.

الدرس السادس: أشراط الساعة وأماراتها (1)

عناصر الدرس

العنصر الأول: معنى الأشراط لغة واصطلاحًا

العنصر الثاني: أشراط الساعة وعلاماتها في الكتاب والسنة

العنصر الثالث: أقسام أشراط الساعة

تمهيد

لما كان اليوم الآخر من الأمور الغيبية، أعان الله ﷻ خلقه على الإيمان به بأمور كثيرة، ومن ذلك ربط هذا الغيب بالأمور المحسوسة، فإن الغيب إذا ربط بالأمور المحسوسة سهل الإيمان به على الإنسان، ومن هذه الأمور المحسوسة التي تعين على الإيمان باليوم الآخر، أشراط الساعة.

وأهمية معرفة هذه الأشراط والأمارات، تظهر من أهمية الإيمان باليوم الآخر، ولذلك فإن الإيمان بأشراط الساعة وعلاماتها الصحيحة الثابتة، جزء لا يتجزأ من الإيمان باليوم الآخر، والذي هو الآخر جزء لا يتجزأ من الإيمان بالغيب.

والحديث عن أشراط الساعة مهم، ولا سيما إذا ابتعد الناس عن تذكر الآخرة واشتغلوا بالدنيا وملذاتها، فإن في أشراط الساعة المحسوسة التي تظهر ويراها الناس بأعينهم كما أخبر النبي ﷺ ما يعيد الناس إلى ربهم ويوقظهم من غفلتهم.

يقول القرطبي -رحمه الله: قال العلماء -رحمهم الله تعالى: الحكمة في تقديم الأشراط، ودلالة الناس عليها، تنبيه الناس من رقدتهم وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يُبَاغَتُوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة، قد نظروا لأنفسهم وانقطعوا عن الدنيا واستعدوا للساعة الموعود بها. والله أعلم.

والإيمان بأشراط الساعة جزء من الإيمان باليوم الآخر الذي هو ركن من أركان الإيمان. والإيمان بالغيب هو أساس الإيمان كله؛ لأن أركان الإيمان كلها من الأمور الغيبية، وقد بين الله ﷻ في كتابه المبين أن الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين المتقين فقال ﷻ: {الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 1 - 5].

ومعلوم -من الدين بالضرورة- أن علم الغيب من خصائص الله وحده.

ومن الآيات في هذا المعنى قوله ﷻ: { قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }.

يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: "فإنه لا يجوز أن ينفي الله ﷻ شيئًا عن الخلق ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك، ألا ترى إلى قوله تعالى: { قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ }، وقوله تعالى: { لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ }، فكان هذا كله مما استأثر الله بعلمه لا يشركه فيه غيره".

ولقد شاء الله –تبارك وتعالى– أن يجعل علم الساعة غيبًا من جملة علم الغيب الذي استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه لا نبيًّا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا؛ وذلك ليبقى الناس من الساعة على حذر دائم، وتوقع مستمر واستعداد كامل لاتخاذ الزاد المناسب لها، فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل، والإيمان بذلك من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر.

وبهذا تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب ومكانته في الإسلام، فهو صفة المؤمنين المتقين، وكل من يدعي علمًا بشيء من الغيب من تلقاء نفسه، يكون ضالًّا ومكذبًا لخبر الله ﷻ. ونصوص الكتاب والسنة تبين أن علم الغيب من خصائص المولى –تبارك وتعالى– وهذا يبين لنا حكم الذين يزعمون أنهم يخبرون عما سيقع في المستقبل من حوادث، أو يزعمون علم ما في نفس الإنسان، وغير ذلك من كذب ودجل وشعوذة، مما نجد له صورًا في بعض الصحف والمجلات التي تحتوي على زاوية لقراءة حظ الإنسان، أو معرفة ما يقع له في المستقبل خلال معرفة الأبراج والكواكب، نسأل الله السلامة والعافية.

ومن أصول الإيمان ولوازمه: التصديق الجازم بكل ما أخبر به النبي ﷺ والتسليم بصحة كل ما أخبر به، وبأنه بلغ الرسالة؛ لأن ما جاء به وحي من الله –تعالى– كما قال تعالى :{وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى }. وقد قال الله –تعالى– في الرسول ﷺ: {وإنك لعلى خلق عظيم}.

قال ابن القيم: "وقد أوجب الله ﷻ على جميع الخلق، طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وحذرهم من مخالفة أمره، وجعل طاعته ﷻ طاعة للرسول ﷺ، ذلك أن التصديق الجازم بالرسول ﷺ يقتضي التسليم المطلق والتام لما جاء به، ويستلزم طاعته

فيما بلغه عن الله –تعالى– وهذا من أعظم لوازم محبته ﷺ والإيمان به، وهو من مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن والسنة توجب طاعة الرسول ﷺ وتبين العلاقة بينها وبين طاعة الله –تعالى– وتحذر من معصيته ومخالفة أمره ﷺ قال الله تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون}، وقال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يبحكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم}.

وقال تعالى: { وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ }، وقال تعالى: { فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }.

يقول الموفق أبو محمد المقد سي –رحمه الله: "ويجب الإيمان بكل ما أخبر به ر سول الله ﷺ، و صح به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق و صدق، و سواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه و لم نطلع على حقيقة معناه، مثل حديث الإسراء والمعراج، ومن ذلك أ شراط ا ساعة مثل: خروج الدجال، ونزول عي سى ابن مريم عليه السلام وقتله له، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع ا شمس من مغربها، وأ شباه ذلك مما صح به النقل".

العنصر الأول: معنى الأشراط لغة واصطلاحًا

معنى الأشراط لغة:

الأشراط: جمع شرط بالتحريك، والشرط العلامة، وأشراط الساعة، أي: علاماتها، وأشراط ا شيء أوائله، ومنه ُشرَط ا سلطان، وهم نخبةُ أ صحابه الذين يقدمهم على غيرهم من مجموع جندِهِ. قال الجوهري: "أشراط الساعة علاماتها، وأسبابها التي دون معظمها وقيامها".

وقال ابن الأثير: "الأشراط: العلامات، واحدها شرط بالتحريك، وبه سميت شُرَط السلطان؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها".

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ } [محمد: 19]: "أشراطها، أي: أماراتها وعلاماتها، وقيل: أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها، وفيه يقال للدُّون من الناس الشُّرْط إلى أن قال: وواحد الأشراط شرط، وأصله الأعلام، ومنه قيل الشرط؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، ومنه الشرط في البيع وغيره".

فتبين من هذا أن الأ شراط في اللغة هي علامات ال شيء المتقدمة عليه والدالة عليه، ومما يدل على تسمية هذه الأشراط في السنة بالعلامات ما جاء في حديث جبريل المشهور عند النسائي، قال: ((يا محمد، أخبرني متى ال ساعة؟ قال: فنكس، فلم يجبه شيئًا، ثم أعاد فلم يُجِبْهُ شيئًا، ثم أعاد فلم يجبه شيئًا ورفع رأ سه، فقال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ من ال سائل؛ ولكن لها علامات تعرف بها)) الحديث.

والساعة: هي جزءٌ من أجزاء الليل أو النهار، وجمعها ساعات وساع.

وال ساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامَة، وقد سُمِّيَت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفاجئ الناس في ساعةٍ فيموت الخلق كلهم بصيحةٍ واحدة.

قال ابن منظور في (لسان العرب): "وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ } [الروم: 55] يعني بالساعة: الوقت الذي تقومُ فيه القيامة، فلذلك ترك أن يعرف أيّة ساعةٍ هي، فإن سميت القيامة ساعة فعلى هذا، والساعة القيامة".

وقال الزجاج: "الساعة ا سمٌ للوقت الذي تصعق فيه العباد، والوقت الذي يبعثون فيه، وتقوم فيه القيامة. سميت ساعة؛ لأنها تفاجئ الناس في ساعةٍ فيموتُ الخلق كلهم عند الصيحة الأولى، والساعة في الأصلِ تطلق بمعنيين:

أحدهما: أن تكون عبارةً عن جزء من أربعة وعشرين جزءًا هي مجموع اليوم والليلة.

والثاني: أن تكون عبارةً عن جزءٍ قليلٍ من النهارِ أو الليلِ.

قال الزجاج: معنى ال ساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم؛ فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة".

معنى الأشراط اصطلاحًا:

أشراط الساعة اصطلاحًا: هي العلامات التي تسبق يوم القيامة وتدل على قدومها. أو يقال: أشراط الساعة هي: علاماتها الدالة على قرب وقوعها، أو هي مبتدؤها وأولها. وإلى نحو هذا أشار أبو عبيدة والجوهري، وابن الأعرابي، والحليمي، والبيهقي، وابن حجر وغيرهم.

يقول الحليمي: "أما انتهاء الحياة الأولى فإن لها مقدمات تُسمى أشراط الساعة وهي أعلامها".

ويقول البيهقي في تحديد المراد من الأشراط: "أي: ما يتقدمها من العلامات الدالة على قرب حينِهَا". ويقول الحافظ ابن حجر: "المراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة".

العنصر الثاني: أشراط الساعة وعلاماتها في الكتاب والسنة

أ-الأدلة من الكتاب على أشراط الساعة وعلاماتها:

موعد قيام الساعة من الغيب الذي استأثر الله ﷻ بعلمه، قال تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الأعراف: 187]. وإذا كان الله ﷻ قد أخفى الساعة عن الخلق، فقد جعل لها ﷻ علامات تدل على قرب وقوعها، ومن الآيات الدالة على ذكر الأشراط قوله تعالى: { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا }.

قال ابن كثير –رحمه الله– في (تفسيره) عند هذه الآية: "فقد جاء أشراطها أي: أمارات اقترابها كقوله تعالى: {هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ } [النجم: 56، 57] وكقوله –جلت عظمته: {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ } [القمر: 1] وكقوله –تبارك وتعالى: {أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل: 1] وقوله –جل وعلا: {ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء: 1] فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم

الرسل الذي أكمل الله -تبارك وتعالى- به الدين وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك، وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله".

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الأدلة على بعض أشـــراط الســـاعة مثل: خروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، وغيرها.

ب-الأدلة من السنة على أشراط الساعة وعلاماتها:

وردت أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ فيها ذكر جملة من أشراط الساعة وعلاماتها، ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل؛ حيث سئل فيه ﷺ عن الإسلام، والإيمان والإحسان، ووقت الساعة، وفيه قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: ((... فأخبرني عن الساعة؟ فقال ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارَاتِهَا؟ قال: أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا، وأن ترى الحفاةَ العُرَاةَ العالةَ رعاءَ الشـــاء، يتطاولون في البنيان)) رواه مسلم.

ومنها حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: "أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة أدم فقال: ((اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذُ فيكم كقُعاص الغنم، ثم ا ستفا ضة المال حتى يعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخلته، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأ صفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانينَ غاية، تحت كل غايةٍ اثنَا ع شرَ ألفًا)). رواه البخاري. فقوله: ((مُوتان)) بـ ضم الميم و سكون الواو: هو الموت كثير الوقوع.

وقوله: ((قُعاص الغنم)): "القعاص" بالضم: هو داء يصيب الدواب، فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة. و"بنو الأصـــفر": هم الروم. و"الغاية": الراية، سميت بذلك؛ لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ر سول الله ﷺ قال: ((لَا تقومُ الـ ساعةُ حتَّى تقتتلَ فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتهما واحدة، وحتى يُبْعَثَ دجَّالُونَ كذَّابُونَ قر يبٌ من ثلاثين، كلهم يزعُمُ أ نه رســـولُ الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتـ قارب الز مان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج -وهو القـ تل- وحتى يكثر فيكم ا لمال

فيفيض حتى يهمّ ربّ المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتَّى يتطاولَ الناسُ في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبرِ الرجلِ فيقول: يا ليتني مَكَانَهُ، وحتَّى تطلعَ الشمْسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانِهَا خَيرًا)) رواه البخاري.

ومنها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: ((طلع النبي ﷺ علينا، ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلهَا عشرَ آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربِهَا، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج، وثلاثةَ خسوفٍ: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)) رواه مسلم.

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة جدًّا. وهذه العلامات منها ما هو قريبٌ من قيام الساعة، وهو ما يُسمَّى بعلاماتِ الساعةِ الكبرَى، مثل: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك وهو ما يُسمى بعلامات الساعة الصغرى.

العنصر الثالث: أقسام أشراط الساعة

قال العلامة السفاريني: "ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم ظهر وانقضى: وهو الأمارات البعيدة.

وقسم ظهر ولم ينقض بل لا يزال في زيادة.

والقسم الثالث: الأمارات الكبيرة التي تعقبها الساعة، وهي تتابع كنظام خرزات انقطع سلكها.

فالأولى -أعني التي ظهرت ومضت وانقضت: منها: بعثة النبي ﷺ وموته، وفتح بيت المقدس. ومنها: قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال حذيفة: "أول الفتن قتل عثمان".

وذكر الحروب التي وقعت بين المسلمين بعد ذلك، وظهور الفرق الضالة كالخوارج والرافضة ... ثم قال: ومنها: خروج كذابين دجالين كل منهم يدعي أنه نبي. ومنها: زوال ملك العرب، رواه الترمذي. ومنها: كثرة المال، رواه الشيخان وغيرهما. ومنها: كثرة الزلازل والخسف والمسخ والقذف وغير ذلك مما أخبر عنه النبي ﷺ أنه من أمارات الساعة فظهر ومضى وانقضى.

القسم الثاني: الأمارات المتوسطة: وهي التي ظهرت ولم تنقضِ بل تتزايد وتكثر، وهي كثيرة جدًّا.

القسم الثالث من أمارات الساعة: العلامات العظام والأشراط الجسام التي تعقبها الساعة، ومنها: خروج المهدي، والمسيح الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج، وهدم الكعبة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج النار من قعر عدن، ثم النفخ في الصور ثم نفخة الفزع، ثم نفخة الصعق وهلاك الخلق، ثم نفخةُ البعث والنشور.

وفي إخباره ﷺ بذلك رحمة بالعباد؛ ليحذروا، ويستعدوا، ويكونوا على بصيرة من أمرهم؛ فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم الذي بلغ البلاغ المبين وبين غاية التبيين، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وأول هذه العلامات: ظهور المهدي، ثم خروج الدجال، ثم نزول المسيح عليه السلام ثم تتتابع.

الدرس السابع: أشراط الساعة وأماراتها (2)

عناصر الدرس

العنصر الأول: أشراط الساعة الصغرى

العنصر الثاني: أشراط الساعة الوسطى

العنصر الأول: أشراط الساعة الصغرى

قد تقدم الكلام على أ شراط ا ساعة إجمالًا، وبينا أن هذه العلامات منها ما هو قريب من قيام ا ساعة، وهو ما يسمى بعلامات ا ساعة الكبرى، مثل: نزول عيسى عليه السلام وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك وهو ما يسمى بعلامات الساعة الصغرى.

وهذه الأخيرة أيضًا منها ما وقع وانقضى، ومنها ما هو مستمر الوقوع، ومنها ما لم يقع بعد، وعليه تفرع التقسيم التالي وهو العلامات الصغرى والوسطى، وكل ذلك ليس مما وردت فيه النصوص الصريحة، الحاسمة للنزاع، بل هذا كله مجرد اجتهاد لتقريب الأفهام. وهذه الأشراط والعلامات الواردة في الأحاديث السابقة وغيرها.

أ-أشراط الساعة الصغرى:

وفيما يلي بيان لأهم أشراط الساعة الصغرى، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولًا: بعثة الرسول ﷺ:

أخبر رسول الله ﷺ أن بعثته علامة من علامات الساعة، ودليل على قرب قيامها؛ حيث إنه ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده.

وقد دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ﷺ. منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((بعثت أنا والساعة كهاتين)) يعني: أصبعين. رواه مسلم.

قال القرطبي -رحمه الله- وهو يتحدث عن أشراط الساعة: أولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي.

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله: وقد فسر قوله ﷺ: ((بعثت أنا والساعة كهاتين -فقرن بين السبابة والوسطى)): بقرب زمانه من الساعة كقرب السبابة من الوسطى، وبأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلّل نبي آخر بينه وبين الساعة، كما قال في الحديث الصحيح: ((أنا الحاشر يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ)) رواه البخاري ومسلم.

فالحا شر الذي يح شر الناس يوم القيامة على قدمه، يعني أن بعثهم وح شرهم يكون عقب ر سالته، فهو مبعوثٌ بالر سالة، وعقيبه يجمع الناس لح شرهم، والعاقب الذي جاء عقيب الأنبياء كلهم، وليس بعده نبي، فكان إرساله ﷺ من علاماتِ الساعة.

ثانيًا: انشقاق القمر:

قال الله تعالى: {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّـاعَةُ وَٱنشَـقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُـواْ وَيَقُولُواْ سِـحْرٌ مُّسْـتَمِرٌّ } [القمر: 1، 2]. قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله تعالى– في (تفسـيره) عند هذه الآية { ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّـاعَةُ وَٱنشَـقَّ ٱلْقَمَرُ }: قد كان هذا في زمان رسـول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديثِ المتواترة بالأ سانيد الـصحيحة، وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أن انـشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

وقال الحافظ ابن رجب –رحمه الله– تعالى: "وقد جعل الله انشـقاقَ القمر من علامات اقتراب الـ ساعة كما قال تعالى: { ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّـاعَةُ وَٱنشَـقَّ ٱلْقَمَرُ } وكان انـ شقاقه بمكة قبل الهجرة. وقد ورد في الأحاديث الـ صحيحة: أن القمر انـ شق في زمن النبي ﷺ منها حديث عبد الله بن مـ سعود رضي الله عنه قال: ((بينما نحن مع ر سول الله ﷺ بمنًى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقةٌ وراء الجبل، وفلقةٌ دونه، فقال لنا ر سول الله ﷺ: ا شهدوا)) رواه مـ سلم. ومنها: حديث أنس رضي الله عنه: ((أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر)) رواه مسلم.

ثالثًا: نارُ الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى لها:

وردت أحاديث عن النبي ﷺ تبين أن من علامات السـاعة خروج نار من أرض الحجاز تضيء منها أعناق الإبل ببصرى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: ((لا تقومُ السـاعة حتى تخرجَ نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)).

قال النووي –رحمه الله: "خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة، وكانت نارًا عظيمة جدًّا، من جنبِ المدينة الشـــرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشـــام، و سائر البلدان، وأخبرني من حـ ضرها من أهل المدينة". وهذه النار غير النار التي تخرج في آخر الزمان، وتحشر الناس، وتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا.

رابعًا: كثرة الفتن:

وقد دلت نـ صوص كثيرةٌ صحيحةٌ على أن من علامات الـ ساعة كثرةُ الهرج، وهو القتل واللغط، وظهور الفتن، وانتـ شارها، ونزولها في البلاد، وكبر بلائها وهولها؛ حتى يمـ سي المرء المسلم من شدة وقعها كافرًا، ويصبح مؤمنًا، ويمسي كافرًا، وتجيء الفتنة تلو الأخرى فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكـ شف، وتظهر أخرى، فيقول: هذه هذه إلى أن يـ شاء الله، فلا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه، وكلما طال الزمان بأهله، وبَعُدَ بهم كانت الفتن أ شد، ومصائبها أعظم، كما شهدت بذلك نصوص الشرع، ودلت عليه الحوادث والوقائع، فعن الزبير بن عدي قال: "أتينا أنس بن مالك ﷺ فشـــكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: ((اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ)). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رســـول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يـ صبح الرجل مؤمنًا، ويمـ سي كافرًا، ويمـ سي مؤمنًا، ويـ صبح كافرًا، يبيعُ دينه بعرضٍ من الدنيا)). رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص { قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره؛ إذ نادى منادي رسول الله ﷺ الـ صلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنٌ فيرقِّقُ بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكـ شف فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأتِهِ منيتُهُ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى

الناسِ الذي يحب أن يؤتى إليه ...)) الحديث. وقد أرشد ﷺ المسلمين إلى ما يعصمهم من هذه الفتن والشرور والآثام فأمرهم بالتعوذ بالله منها، وبالابتعاد عنها مع المبادرة بالأعمال الصالحة، والإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، ولزومِ جماعة المسلمين.

خامسًا: خروج الدجالين والكذابين أدعياء النبوة:

من أمارات الساعة وأشراطها: خروج الدجالين الكذابين، الذين يدَّعُون النبوة ويثيرون الفتنة بأباطيلهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن عددَ هؤلاء قريبٌ من ثلاثين، فقال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذَّابُون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله)).

وقد تحققت ووقعت هذه الآية، والعلامة من علامات الساعة، فخرج كثير من أدعياءِ النبوة قديمًا وحديثًا، ولا يستَبْعَد أن يظهر دجالون آخرون إلى أن يظهر الدجال الأعور الكذَاب – نعوذ بالله من فتنته– فقد خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال: ((إنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابًا، آخرهم الأعور الكذاب)).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكونُ في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)).

وقد ظهر عدد من هؤلاء الأدعياء الكذابين كالأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأسدي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، ومنهم الحارث بن سعيد الكذاب. وفي العصر الحديث قبل أكثر من قرن ظهر بالهند رجل يدعى ميرزا غلام أحمد القادياني –لعنة الله عليه– ادعى النبوة، وإليه تنتسب الطائفة القاديانية.

سادسًا: ولادة الأمة ربتها وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان:

من علامات الساعة التي ظهرت وأخبر بها الرسول ﷺ ولادة الأمة ولدًا يكون له السيادة عليها، وتفاخر الناس بالبنيان الشاهق، وزخرفةُ البيوت بعد أن كانوا حفاة يعيشون في خيام الشعر، ويرعون الشياه والبعير، كما دلَّ على ذلك الحديث المشهورُ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل الطويل وسؤاله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، ((قال له

جبريل عليه السلام : فأخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلدَ الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالةَ رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)).

ومضمون ما ذكر من أشراط الساعة في هذا الحديث: أن تنقلب الموازين، وتصبح الأمور في غير محلها اللائق بها، كأن يصبح الولد سيدًا ومولى لأمه، ويحدث هذا عندما يتسع الإسلام، ويكثر السبي، ويتخذ الناس السراري، ويكثر منهن الأولاد، فيكون ابن الرجل من أمته في معنى السيد لأمه؛ إذ كانت مملوكة لأبيه، وملك الأب راجع إلى الولد، وكذلك ابنتها؛ لأنها في الحسب كأبيها.

وكذلك بالنسبة للحفاة العراة رعاء الشاء، أهل الجهل والجفاء عندما تختل الموازين بكثرة الأموالِ بين أيديهم، يصبحون هم رءوس الناس، فيتطاولون في البنيان ويتنافسون على وجه التفاخرِ والخيلاء، في زخرفَةِ العمارات وعدد أدوارها بعد أن كانوا أهل تنقل وترحال لا تستقر بهم دار.

سابعًا: قبض العلم وظهور الجهل:

من علامات الساعة التي أخبر بها رسول الله ﷺ: قبض العلم وظهور الجهل، فعن أبي موسى وعبد الله بن مسعود { قالا: قال رسول الله ﷺ: ((إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج)) والهرج: القتل.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا))، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((يتقاربُ الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله، أيم هو؟ قال: القتل القتل)).

وقد ورد ما يدل على أن المراد برفع العلم وكثرة الجهل: موت العلماء فلا يبقى إلا الجهال الذين يتخذهم الناس رؤساء فيضلون، ويضلون غيرهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص { قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله –تعالى– لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العبَادِ،

ولكن يقبضُ العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رءو سًا جهالًا، فـ سئلوا فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأضَلُّوا)).

ثامنًا: تكليم السباع والجماد للإنس:

من أ شراط الساعة التي أخبر بها الر سول ﷺ تكليم السباع الإنس، وإخبار فخذ الرجل بما يحدث أهله بعده، وكلام النعل والسوط لصاحبهما.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((صلى ر سول الله ﷺ الصُبَّحَ، ثم أقبل على الناس فقال: بينا رجل يـ سوق بقرة؛ إذ ركبها فـ ضربَهَا، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث، فقال الناس: سـبحان الله! بقرةٌ تكلم؟!! فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثَمَّ، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بـ شاة، فطلب حتى كأنه ا ستنقذها منه، فقال له الذئب: يا هذا، اسـتنقذها مني فمن لها يوم السـبع؟ يوم لا راعي لها غيري! فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم؟!! قال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم)).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا سـاقه الله إليَّ؟! فقال: يا عجبي! ذئب مُقْعٍ على ذنبه يكلمني كلامَ الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجبَ من ذلك؟ محمد ﷺ بيثربَ يخبر الناس بأنباءِ ما سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمَهُ حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى ر سول الله ﷺ فأخبره، فأمر ر سول الله ﷺ فنُودِي بالـ صلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال ر سول الله ﷺ: صدق، والذي نفسي بيدِهِ، لا تقومُ الساعة حتى يُكلم السباعُ الإنس، ويكلم الرجلُ عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده)).

تاسعًا: قطعُ الأرحام، وسوء الجوار، وظهور الفساد والفحش:

من علاماتِ الساعة التي أخبر بها الر سول ﷺ قطيعَةُ الرحم، و سوء الجوار، وظهور الفساد والفحش، ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواهُ عبد الله بن عمرو بن العاص {: أن

رسول الله ﷺ قال: ((لا تقومُ الساعةُ حتى يظهر الفحش والتفاحش، وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة)).

وقد وقع ما أخبرَ به الرسول ﷺ فنرى الفساد ظاهرًا بين الناس، كما نرى التقاطع وسوء الجوار حاصلًا بينهم، وحصل التباغض والتنافر بينهم محل المحبة والصلة والمودة؛ حتى إن الجار لا يعرف جاره، والقريب لا يعرف عن بعض أرحامه هل هم من الأموات أم من الأحياء، ولا نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل.

عاشرًا: كثرة الزلازل وظهور الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به بعض هذه الأمة:

من علامات الساعة وأماراتها التي أخبر بها الرسول ﷺ: كثرة الزلازل، وظهور الخسف، والقذف، والمسخ، وقد دل على هذا الأحاديث الثابتة عنه ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل)).

يقول الحافظ ابن حجر: "وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثيرٌ من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها".

وقد كثرت الزلازل في عصرنا الحاضر في أماكن متعددة، وهذا مصداق لما أخبر به رسول الله ﷺ. وعن عائشة < عن النبي ﷺ أنه قال: ((يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث)).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت المعازِف، وكثرت القِيَان، وشُرِبَت الخمور)).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا اتُّخِذَ الفيء دولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعقَّ أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلةَ فاسقُهُم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرم الرجل مخافَةَ شرِّهِ، وظهرت القيناتُ والمعازِفُ، وشُرِبَتِ الخُمَور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وزلزلة وخسفًا ومسخًا وقذفًا، وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فَتَتَابَعَ)). وفي هذا الحديث نظر.

وقد أخبر الرسول ﷺ: أن وقوع الخسف والمسخ والقذف في الزنادقة، وأهل القدر، فعن نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر { قعودًا؛ إذ جاء رجلٍ، فقال: إن فلانًا يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام، فقال عبد الله: بلغني أنه أحدثَ حدثًا، فإن كان كذلك فلا تقرأنَّ عليه مني السلام، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنه سيكونُ في أُمَّتِي مسخٌ وقذفٌ، وهُوَ في الزنديقيةِ والقَدَرِيَّةِ)).

فهذه الأحاديث السابقة التي فيها ذكر الخسف والقذف والمسخ فيها وعيد شديد للعصاة من أهل المعازف، و شاربي الخمور بأن يعاقبهم الله -تعالى- بهذه العقوباتِ أو ببعضها على عصيانهم وتمردهم، وهي في نفسِ الوقت من أمارات الساعة التي كلما يقتربُ وقوعها؛ يزدادُ ظهورُ المعاصي والذنوب؛ لأنَ الساعةَ لا تقوم إلا على شرارِ الخلق، والله أعلم.

العنصر الثاني: أشراط الساعة الوسطى

منها: قوله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع)). رواه الإمام أحمد والترمذي، والضياء المقدسي من حديث حذيفة رضي الله عنه. واللكع: العبد الأحمق واللئيم، والمعنى: لا تقوم الساعة حتى يكون اللئام والحمقى ونحوهم رؤساء الناس.

ومن الأمارات: قوله ﷺ: ((يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر)). رواه الترمذي عن أنس. وقوله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يتباهَى الناس في المساجد)) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه.

ومنها: ما في (صحيح البخاري) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه: أنه قال: ألا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن من أشراط الساعةِ أن يُرْفَع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال، ويكثر النساء؛ حتى يكون لخمسين امرأة القيمُ الواحد)).

وفي (الصحيح) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدث القوم؛ جاءهُ أعرابي؛ قال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدّث، وقال بعض القوم: سمع ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع؛ حتى إذا قضى حديثه؛ قال: أين السائل عن الساعة؟

فقال: ها أنا [ذا] يا ر سول الله! قال: فإذا ُضيّعت الأمانة؛ فانتظِرِ ال ساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظِرِ الساعَةَ)).

وقد يُعدُّ من هذه الوسطى ما يأتي ذكره؛ إذ ليس في هذا الأمر ضابط شرعي محدَّد يميز هذه عن تلك، وإنما الغرض العلم بها، والحذر، وتذكر الآخرة، والرجوع إلى الله، والرغبة إليه بالطاعة والعبادة.

ومن ذلك: الفتوحَات والحروب: وقد فتحت فارس والروم، وزال ملك ك سرى وقي صر، وغزا المسلمون الهند، وفتحوا القسطنطينية، وسيكونُ للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم ينت شر فيه الإ سلام، ويذل ال شرك، وتفتح روما م صداقًا؛ لحديث الر سول ﷺ القائل: ((لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْـــلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)) رواه أحمد، وصححه محققو (المسند).

اختلال المقاييس: كما أخبر الرســـول ﷺ أن المقاييس التي يُقَوَّم بها الرجال تختلُّ قبلَ قيام الساعة، فيقبل قول الكذبة ويصدق، ويرد على الصادق خبره، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض، ويخون الأمناء ويتهمون، ويتكلم التافهون من الرجال في القـ ضايا التي تهمّ عامة الناس، فلا يقدمون إلا الآراء الفجّة، ولا يهدون إلا للأمور المُعْوجة.

فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة قال: قال ر سول الله ﷺ: ((سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ َسنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ يُ َصدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا ال َّصادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِ ضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِ ضَةُ؟ قَال: الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلَّم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ)). رواه ابن ماجه. وصححه الألباني في (صحيح ابن ماجه).

انتفَاخ الأهلّة: ومن الأدلة على اقتراب الســـاعة أن يرى الهلال عند بُدُوِّ ظهوره كبيرًا حتى يقال ساعة خروجه: إنه لليلتين أو ثلاثة، فعن ابن م سعود رضي الله عنه قال: قال ر سول الله ﷺ: ((مِن اقْتِرابِ السَّاعَةِ انتِفَاخُ الأهِلَّةِ)). رواه الطبـــــراني في (الكبير). و صححه الألباني في (صحيح الجامع). وعن أنس رضي الله عنه قال: قال ر سول الله ﷺ: ((مِنَ اقْتِرَابِ ال سَّاعَةِ أَنْ يُرَى الْهِلَالُ قَبَلًا فَيُقَالُ: لِلَيْلَتَيْنِ، وَأَنْ تُتخذَ المَسَاجِدُ طُرُقًا)). رواه الطبراني في (الأوسط). وحسَّنه

الألباني في (صحيح الجامع)، والعلامات في هذا كثيرة، نكتفي بما ذكرنا، لعل في ذلك غنية لما لم يذكر.

الدرس الثامن: أشراط الساعة وأماراتها (3)

عناصر الدرس

العنصر الأول: أشراط الساعة الكبرى

العنصر الثاني: بيان أن علم الساعة عند الله -تعالى-وذكر أحاديث أشراط الساعة

العنصر الأول: أشراط الساعة الكبرى

قد سبق الكلام على أشراط الساعة الصغرى والوسطى، و سنتكلم الآن عن الأشراط الكبرى، ثم نبين أن علم الساعة لله وحده، لم يُطْلِعْ عليه أحدًا من خلقه.

أولًا: ظهور المهدي:

كنا قد ذكرنا فيما سبق العلامات الكبار مجملة، والآن سنذكرها مفصلة، وأولها: ظهور المهدي؛ عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تنقضي الأيام ولا يذهب الدهر حتى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي)) رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب عن علي وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة.

قال العلامة السفاريني: وقد تكاثرت الروايات والآثار بأمر المهدي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود، والترمذي، وأحمد وغيرهم. انتهى. واسم المهدي محمد بن عبد الله، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ﵁ يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا فيملؤها عدلًا وقسطًا.

قال العلامة السفَّاريني: "قد كثرت الأقوال في المهدي؛ حتى قيل: لا مهدي إلا عيسى! والصواب الذي عليه أهل الحق: أن المهدي غير عيسى، وأنه يخرج قبل نزول عيسى ﵇ وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، و شاع ذلك بين علماء السنة حتى عُدَّ من معتقداتهم". انتهى.

وقد انقسم الناس في أمر المهدي إلى طرفين ووسط:

فالطرف الأول: من ينكرُ خروج المهدي مثل بعض الكتَّاب المعاصرين

والطرف الثاني: من يغالي في أمر المهدي من الطوائف الضـــالة؛ حتى ادَّعَت كلُّ طائفة لزعيمهم أنه المهدي المنتظر؛ فالرافضـــة تدعي أن المهدي هو إمامهم المنتظر الذي ينتظرون خروجه من السرداب، ويسمونه محمد بن الحسن العسكري، دخل سرداب سامرا طفلًا صغيرًا منذ أكثر من خمسمائة سنة، وهم ينتظرونَ خروجه! والفاطمية: يزعمون أن زعيمهم هو المهدي. وهكذا.

وأما الوسط في أمر المهدي؛ فهم أهل السنة والجماعة، الذين يثبتون خروج المهدي على ما تقضي به النصوص الصحيحة؛ في اسمه، واسم أبيه، ونسبه، وصفاته، ووقت خروجه، لا يتجاوزون ما جاء في الأحاديث في ذلك، ولخروجه أمارات وعلامات تســـبقه ذكرها أهل العلم، هذا مجمل ما في كلام القرطبي -رحمه الله تعالى.

ذلكم هو المهدي الذي أخبر عنه رســـول الله ﷺ وبين صـــفاته الفارقة، ووقت خروجه وسيرته، وقد ادعى المهدية جماعة من الضلَّال في وقت مبكر عن وقته، ولا تنطبق عليهم صفاته، وإنما أرادوا بذلك التغرير بالسذج، واستغلال ادعاء هذه الشخصية لمطامعهم الخاصة، فأظهر الله كذبهم، وفضح باطلهم، ولا تعجب؛ فقد ادَّعى قوم النبوة، وافتروا على الله الكذب، {وَهَـــذَا كِتَـــٰبٌ أَنزَلْنَـــٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [الأنعام: 92].

ثانيًا: خروج الدجال:

المسيحُ الدَّجَّال والفاتن الكذاب مسيح الضلالة نعوذ بالله من فتنته؛ فقد أنذرت به الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام- أقوامَها، وحذرت منه أممها، وبينت أوصافه، وحذر منه نبينا محمد ﷺ أكثرَ، وبيَّنَ أوصافه ونعته لأمته نعوتًا لا تخفى على ذي بصيرة. وفي الترمذي: أنه يخرج من خراسان.

وفي (صحيح مسلم) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: ((يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة)). و سُمي المسيح لأن عينه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض؛ أي: يقطعها، وسمي الدجال: من الدجل، وهو الخلط، يقال: دجل؛ إذا خلط وموّه، ودجَّال على

وزن فعَّال من أبنية المبالغة؛ أي: يكثر منه الكذب والتلبيس، وهو يخرج في زمان المهدي.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله: "ثم يؤذن له (أي: الدجال) في الخروج في آخر الزمان، يظهر أولًا في صورة ملك من الملوك الجبابرة، ثم يدعي النبوة، ثم يدّعي الربوبية، فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم، والطغام من الرعاع والعوام، ويخالفه ويردُّ عليه من هداه الله من الصالحين، وحزب الله المتقين، ويتدنَّى فيأخذ البلاد بلدًا بلدًا وحصنًا حصنًا، وإقليمًا إقليمًا، وكورة كورة، ولا يبقى بلدٌ من البلدان إلا وطئه بخيلِهِ ورجله؛ غير مكة والمدينة. ومدة مقامه في الأرض أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيام الناس هذه، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف. وقد خلق الله على يديه خوارق كثيرة يضل بها من يشاء من خلقه، ويثبت معها المؤمنون فيزدادون إيمانًا مع إيمانهم وهدى إلى هداهم.

ويكون نزول عيسى ابن مريم عليه السلام مسيح الهدى في أيام مسيح الضلالة، فيجتمع عليه المؤمنون، ويلتفُّ معه عباد الله المتقون، فيسير بهم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قاصدًا نحو الدجال وقد توجَّه نحو بيت المقدس، فينهزم منه الدجال، فيلحقه عند باب مدينة "لُد"، فيقتله بحربته وهو داخلٌ إليها، ويقول له: إن لي فيك ضربةً لن تفوتني، وإذا واجهُهُ الدجال؛ ينماع كما يذوب الملح في الماء، فيتداركه، فيقتله بالحربة بباب "لد"، فتكون وفاته هناك –لعنه الله– كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه". انتهى كلام ابن كثير –رحمه الله– في تلخيص قصة الدجال حسبما ورد في النصوص الصحيحة، وهو تلخيص جيد مفيد.

والذي تدلّ عليه النصوص من أمر الدجال أيضًا وفتنته: أن من استجاب له؛ يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت لهم زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، وترجع لهم مواشيهم سمانًا ذات لبن، ومن لا يستجيب له، ويردّ عليه أمره؛ تصيبهم السنة والجدبُ، والقحط، والقلة، وموت الأنعام، ونقص الأموالِ والأنفس، والثمرات، وأنه تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النحل، وأنه يقتل شابًّا، ثم يحييه؛ كل ذلك امتحان يمتحن الله به عباده في آخر الزمان، فيضلّ به كثيرًا.

وهو مع هذا هين على الله، ناقص ظاهر النقص والفجور والظلم، وإن كان معه ما معه من الخوارق، مكتوب بين عينيه كافر، و ما يجر يه على يد يه محنة من الله لعباده، وهي محنة خطيرة، لا ينجو منها إلا أهل الإيمان واليقين، ولخطورة محنته وشدة فتنته حذرت منه الأنبياء أممها، وأشدهم تحذيرًا لأمته محمد ﷺ.

عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: سمعت ر سول الله ﷺ يقول: ((إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر الدجال قومه، وإني أنذركموه)). رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقد أمر النبي ﷺ أمته بالا ستعاذة من فتنته في آخر كل صلاة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ر سول الله ﷺ: ((إذا فرغ أحدكم من التـ شهد الآخر؛ فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المـ سيح الدجال)). رواه الإمام أحمد ومسلم.

وقد تواترت الأحاديث من وجوه متعددة في إثبات خروج الدجال وبيان فتنته والا ستعاذة منه، وأجمع أهل الـ سنة والجماعة على خروج الدجال في آخر الزمان، وذكروا ذلك ضمن مباحث العقيدة؛ فمن أنكر خروجه؛ فقد خالف ما دلت عليه الأحاديث المتواترة، وخالف ما عليه أهل الســـنة والجماعة، و لم ينكر خروجه إلا بعض المبتدعة كالخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وبعض الكتاب العصـــريين والمنتســـبين إلى العلم، و لم يعتمدوا على حجة يدفعون بها النصوص المتواترة سوى عقولهم وأهوائهم، ومثل هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم.

والواجب على المؤمن الإيمان بما صحَّ عن الله ور سوله، واعتقاد ما يدل عليه، ولا يكون من الذين قال الله –تعالى– فيهم: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ } [يونس: 39]؛ لأن مقتضى الإيمان بالله ورسوله هو التسليم لما جاء عنهما والإيمان به، ومن لم يفعل؛ فإنه متبع لهواه بغير هدى من الله.

ثالثًا: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام :

إن نزول عيسى ابن مريم ﷺ دلَّ عليه القرآن وقد أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى نبينا محمد ﷺ، وتواتر النقل عنه بذلك، وأجمع عليه علماء الأمة ســـلفًا وخلفًا، واعتبروه مما يجب اعتقاده والإيمان به.

قال تعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } [النساء: 159] أي: ليؤمننَّ بعيسى قبل موته، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان.

ورد عن رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكَمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها)).

وفي (صحيح مسلم): ((فينزل عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ)).

ومعنى كونه "بين مهرودتين" أنه لابس ثوبين مصبوغين بورس وزعفران، و"الجُمان" بضم الجيم: هي حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ. وانعقد الإجماع على أن عيسى ﷺ متبع لهذه الشريعة المحمدية ليس بصاحب شريعة مستقلة عند نزوله.

وثبت في الصحيح عنه: "أنه يُنزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ويقتل الدجال". ومن فارقت روحه جسده؛ لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي؛ فإنه يقوم من قبره. وأما قوله تعالى: {إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [آل عمران: 55] فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت؛ لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فَعُلِم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: { وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ }، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 157، 158] فقوله هنا: { بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ }؛ يبين أنه رفع بدنه وروحه؛ كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.

ولهذا قال من قال من العلماء: { إِنِّى مُتَوَفِّيكَ }؛ أي: قابضك، أي: قابض روحك وبدنك،

يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ التوفي لا يقتضي توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا إلا بقرينةٍ منفصلة، وقد يراد به توفي النوم؛ كقوله تعالى: {ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الزمر: 42]، وقوله: {وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأنعام: 60]. انتهى.

وقال القاضي عياض: نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة؛ للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته. وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا } [الأحزاب: 40] وبقوله ﷺ: ((لا نبي بعدي)) وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة ولا تنسخ! وهذا استدلال فاسد؛ لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه الأحاديث، ولا في غيرها شيء من هذا، بل صحت هذه الأحاديث هنا، وما سبق في كتاب الإيمان، وغيرها أنه ينزل حكمًا مقسطًا يحكم بشرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس ... انتهى.

أقول: وفي عصرنا هذا ينكر بعض الكتاب الجهال وأنصاف العلماء نزول عيسى عليه السلام اعتمادًا على عقولهم وأفكارهم، ويطعنون في الأحاديث الصحيحة، أو يؤوّلونها بتأويلات باطلة، والواجب على المسلم التصديق بما أخبرَ به النبي ﷺ وصح عنه؛ لأن ذلك من الإيمان بالغيب الذي أطلع الله رسوله عليه.

قال العلامة السفاريني -رحمه الله: "ويكون مقررًا لشريعةِ نبينا محمد ﷺ لأنه رسولٌ لهذه الأمة كما مر، ويكون قد علم أحكام هذه الشريعة بأمر الله -تعالى- وهو في السماء قبل أن ينزل ...". قال: "وأما مدته ووفاته؛ فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبراني وابن عساكر: أنه ﷺ قال: ((ينزل عيسى ابن مريم، فيمكث في الناس أربعين سنة)). وعند الإمام أحمد وابن أبي شيبة، وأبي داود، وابن جرير وابن حبان عنه: "أنه يمكث أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنوه عند نبينا محمد ﷺ". انتهى كلامه.

رابعًا: خروج يأجوج ومأجوج:

نتكلم عن خروج يأجوج ومأجوج على ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من ذكر هذا الحدث العظيم؛ لأن الإيمان بذلك واعتقاده واجب على المسلم.

وخروج يأجوج ومأجوج ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ ذكر ذلك السفاريني – رحمه الله: أما الكتاب؛ ففي قوله تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ } [الأنبياء: 96، 97]، وقال تعالى في قصة ذي القرنين: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا } [الكهف: 92 – 100].

وهذا سدٌّ من حديد بين جبلين بناه ذو القرنين فصار ردمًا واحدًا يحجز هؤلاء القوم المفسدين في الأرض عن أذيةِ الناسِ، والإفسادِ في الأرض؛ فإذا جاء الوقت الذي قدّر انهدام السد فيه؛ جعله الله مساويًا للأرض وعدًا لا بد منه؛ فإذا انهدم؛ يخرجون على الناس ويموجون، وينسلون –أي: يسرعون المشي– من كل حدب، ثم يكون النفخ في الصور قريبًا من ذلك.

وأما الدليل من السنة: ففي (صحيح مسلم) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: ((إن الله –تعالى– يوحي إلى عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم؛ فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كُلِّ حدب ينسلُونَ، فيمُرُّ أوائلهُم على بحيرةِ طبريةَ فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم، فيقولون: لقد كانَ بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه؛ حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار)) الحديث.

وفي حديث حذيفة عند الطبراني: ((ويمنعهم الله من مكةَ، والمدينة، وبيت المقدس)). قال الإمام النووي: هم من ولد آدم عند أكثر العلماء. وقال ابن عبد البر: "الإجماع على أنهم من ولدِ يافث بن نوح عليه السلام . وقد أخبر النبي ﷺ عن قرب خروجهم وحذر منهم، فقال ﷺ كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((فُتِحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا)). وفي الصحيحين من حديث زينب بنت جحش: ((أن رسول الله ﷺ نام عندها، ثم استيقظ محمرًّا وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله! ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من ردمِ يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحَلَّقَ بين إصبعَيْهِ)).

وأما صفاتهم وأجسامهم؛ فقد قال الإمام ابن كثير –رحمه الله: "وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك الغتم المغول؛ المجرزمة عيونهم، الدلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالِهم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما ويتوطأ بالأخرى؛ فقد تكلف ما لا علم له به، وقال ما لا دليل عليه".

وأما ما يحصل منهم من الأذى والفساد في الأرض ونهايتهم؛ فقد دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس؛ كما قال تعالى: {ڈ ڈ ژ ژ ڑ}، فيغشون الناس، وينحاز الناسُ عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض؛ حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسًا؛ حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان ههنا ماء مرة؛ حتى إذا لم يبقَ من الناس أحدٌ إلا في حصن أو مدينة؛ قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجعُ إليه مختضبة دمًا للبلاء والفتنة؛ فبينما هم على ذلك؛ بعث الله دودًا في أعناقهم، كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتَى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه؛ فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد رجل منهم محتسبًا، قد وطنها على أنه مقتول، فينزل، فيجدهم مَوتَى بعضهم على بعض، فينادي يا معشر المسلمين؛ ألا أبشروا، إن الله –تعالى– قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم، وحصونهم، ويسرحون مواشيهم؛ فما يكون لها رعي إلا

لحومهم، فتشكر عنه، كأحسن ما تشكر عن شيء أصابته من النبات قط)). قال الإمام ابن كثير: وهكذا أخرجه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إســـحاق به، وهو إسناد جيد".

خامسًا: خروج الدابة:

ذكر الله خروج الدابة في قوله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ } [النمل: 82]. قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– في (النهاية): قال ابن عباس والحسن وقتادة: { تُكَلِّمُهُمْ } أي: تخاطبهم مخاطبة، ورجَّح ابن جرير تخاطبهم؛ تقول لهم: { أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ } وحكاه عن علي وعطاء. قال ابن كثير: " في هذا نظر".

ثم قال: "وعن ابن عباس: { تُكَلِّمُهُمْ } تجرحهم؛ بمعنى: تكتب على جبين الكافر كافر، وعلى جبين المؤمن مؤمن، وعنه: تخاطبهم وتجرحه م، وهذا القول وهو قوي حســـن جامع للمذهبين –والله أعلم. وقال أيضًا في (تفسيره): "هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق؛ يخرج الله لهم دابةً من الأرض؛ قيل: من مكة، وقيل: من غيرها، فتكلم الناس".

وفي (صحيح م سلم) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ر سول الله ﷺ: ((ثلاثٌ إذا خرجن؛ لا ينفع نف ًسا إيمانُهَا لم تكن آمنت من قَبْلُ، أو ك سبت في إيمانها خيرًا: طلوع ال شمس من مغربِهَا، والدجال، ودابة الأرض)). واختلف في تعيين هذه الدابة وصـــفتها ومن أين تخرج اختلافًا كثيرًا قد ذكرناه في كتاب (التذكرة)؛ هذا كلام القرطبي.

وعن حذيفة بن أســـيد الغفاري ﷺ قال: ((طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات؛ وذكر منها الدابة)). رواه الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، ومسلم، وأهل السنن، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ولمسلم من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال

ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة ...)) الحديث. ولمسلم أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((بادروا بالعمل ستًّا الدجال، والدخانُ، ودابة الأرض)) الحديث. وعن عبد الله بن عمرو؛ قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى؛ فأيُّهما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرى على أثرها قريبًا)). رواه مسلم.

قال ابن كثير: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى ﷺ من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج؛ فكل ذلك أمورٌ مألوفة؛ لأنهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إيَّاهم بالإيمان والكفر؛ فأمر خارجٌ عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية؛ كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية".

وعمل هذه الدابة كما جاءت به الأحاديث أنها تسم الناس المؤمن والكافر، فأما المؤمن؛ فيرى وجهه كأنه كوكب دري، ويكتب بين عينيه: مؤمن. وأما الكافر؛ فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، ويكتب بين عينيه: كافر. وفي رواية: فتلقى المؤمن فتسمه في وجهه نكتة فيبيض لها وجهه، وتسم الكافر نكتة سوداء يسود لها وجهه، ويشترك الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن الكافر وبالعكس؛ حتى إن المؤمن يقول للكافر: يا كافر! اقضني حقي.

وأما صفتها؛ فقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي في (تفسيره): "وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يذكر الله ولا رسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها المقصود منها، وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجةً وبرهانًا للمؤمنين، وحجة على المعاندين ...". انتهى.

سادسًا: طلوع الشمس من مغربها:

قال الله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ } [الأنعام: 158]. قال الحافظ ابن كثير في (النهاية): قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا رآها الناس؛ آمن من عليها؛ فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)). وقد أخرجه بقيةُ الجماعة إلا الترمذي ...". انتهى.

وقد أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تقومُ الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربِهَا؛ فإذا طلعت ورَآهَا النَّاسُ؛ آمنوا أجمعون؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها)). وقال الإمام ابن كثير –رحمه الله: وفي الحديثِ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي، وصححه النسائي وابن ماجه من طريق عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: ((إن الله فتح بابًا قِبَلَ المغرب، عرضه سبعون –أو قال أربعون عامًا– للتوبة، ثم لَا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربِهَا)).

فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيمانًا وتوبة بعد طلوع الشمس من مغربِهَا لا تقبل منه، وإنما كان كذلك –والله أعلم– لأن ذلك من أشراط الساعة، وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة؛ كما قال تعالى: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا } وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ } [غافر: 84، 85]. وقال تعالى: {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ } [محمد: 20]. وقال أيضًا في (تفسيره): { لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ } أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ؛ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك؛ فإن كان مصلحًا في عمله؛ فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحًا، فأحدث توبة حينئذ؛ لم تقبل منه توبته، كما دلت

عليه الأحاديث الكثيرة، وعليه يحمل قوله تعالى: { أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا } أي: لا يقبل منه كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك". انتهى.

وقال البغوي: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ } [الأنعام: 158]؛ أي: لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان { أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا } يريد: لا يقبل إيمان كافر، ولا توبة فاسق". انتهى.

سابعًا: حشر الناس إلى أرض الشام:

قال الإمام ابن كثير في (النهاية): ثبت في الصحيحين من حديث وهيب، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: ((يحشر الناس على ثلاثِ طرائقِ راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرةٌ على بعير، وتحشر بقيتهم النار؛ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معَهُم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا)).

ثم ساق الأحاديث في هذا المعنى، ثم قال: "فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلى محلة، وهي أرض الشام، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة؛ فصنف طاعمين كاسين وراكبين، وقسمٌ يمشون تارةً ويركبون تارةً أخرى، وهم يعتقبون على البعير الواحد -كما تقدم في الصحيحين- ((اثنان على بعير، وثلاثة على بعير ...)). إلى أن قال: ((وعشرة على بعير يعتقبونه من قلة الظهر))؛ كما تقدم في الحديث، وكما جاء مفسرًا في الآخر: ((وتحشر بقيتهم النار)) وهي التي تخرج من قعر عدن، فتحيط بالناسِ من ورائهم؛ تسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف منهم؛ أكلته النار.

وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الزمان؛ حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المشترى وغيره، وحيث تهلك المتخلفين منهم النار، ولو كان هذا بعد نفخة البعث؛ لم يبق موت ولا ظهر يشترى ولا أكل ولا شرب". انتهى.

وقد جاءت أحاديث تدلّ على أنه في آخر الزمان تخرج نارٌ من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر. منها الحديث الذي رواه أحمد ومسلم وأهل السنن: ((تخرج نار من قعر عدن، تسوق -أو تحشر- الناس؛ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا)). ومنها حديث عبد الله بن عمر {

قال: قال رسول الله ﷺ: ((ستخرج نار من حضرموت -أو من نحو بحر حضرموت- قبل يوم القيامة، تحشر الناس، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام)). رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

العنصر الثاني: بيان أن علم الساعة عند الله تعالى وذكر أحاديث أشراط الساعة

قال الله تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: 187]. وقال سبحانه: {يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: 63]. وقال تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ} [النازعات: 42 - 44].

وهذه الآيات كلها تدل دلالةً صريحةً واضحةً على أن الله -تعالى- أخفى علم الساعة عن جميع الناس، ولم يطلع عليها أحدًا من خلقه، وجاء حديث جبريل ﷺ ليقطع الجدل في ذلك، كما روى ذلك البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، ومن حديث عمر بن الخطاب } عند مسلم: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: ((مَتَى السَّاعَةُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل!)). وجاء في حديث ابن عمر { عن النبي ﷺ أنه قال: ((مفاتحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلا اللهُ، ثم تَلَا هذه الآية: {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ} [لقمان: 34])) الآية.

قال ابن كثير: "فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم ﷺ نبيّ الرحمة، ونبي التوبة، العاقب، والمقفي، والحاشر الذي تُحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد {: ((بُعِثْتُ أَنَا والساعةُ كَهَاتَيْنِ)) وقرن بين أصبعيه: السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله -تعالى- أن يردَّ عِلْمَ وقت الساعةِ إليه، فإذا سُئل عنها قال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. الأعراف 187

ومع و ضوح هذه الدلالات و صراحتها؛ فقد تجرَّأ على القول بتحديد وقتها أناس عديدون، وأكثر هؤلاء جهلة أو مفترون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن تكلم في وقتها المعين مثل الذي صنَّف كتابًا سماه (الدر المنظم في معرفة الأعظم)، وذكر فيه عشر دلالات بَيَّنَ فيها وقتها، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم، والذي تكلم في (عنقاء مغرب)، وأمثال هؤلاء، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم، فغالبهم كاذبون مفترون، وقد تبيَّن لَهُم من وجوهٍ كثيرةٍ أنهم يتكلمون بغير عِلْم، وإن ادَّعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار، وقد قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 33].

ومن هؤلاء الجهلة من ادَّعى أن رســـول الله ﷺ كان يعلم متى وقت قيامها، فإنه مخالف لصريح القرآن والسنة، وقد أجاب عن ذلك ابن القيم في (المنار المنيف) بنحو ما سبق وأشار إلى أن هناك من جاهر به في عصـــره. ولما قوبل بحديث جبريل قال: "معناه: أنا وأنت نعلمها".

وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف، وهو من الصوفية أمر مشهور.

يقول ابن القيم عند إجابته عن هذه الشـــبهة معقبًا: "ولكن هؤلاء الغلاة عندهم أن علم رسول الله ﷺ منطبق على علم الله، سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله ﷺ، والله –تعالى– يقول: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰـــــفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ }. [التوبة: 101] فالله المستعان.

فإذا تحقق أن الله استأثر بعلم الساعة، وأنه لا سبيل إلى معرفة وقتها بأية وسيلة، وتحت أيِّ غطاء؛ تقرر في ذهن العاقل أن لا فائدَةَ ترجى من وراء بحث ذلك، فهو خارجُ حدود العلم البشري، وعليه أن يستعدَّ لها، وأن يتهيأ بالعمل الصالح للنجاة من هولها، وقد نبَّهَ إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال لمن سأله عنها: ((ويحك، إن الساعة آتية، وماذا أعددت لها)).

الدرس التاسع: عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين بين الإقرار والإنكار

عناصر الدرس

العنصر الأول: عذاب القبر ونعيمه: شبهات، وردود.

العنصر الثاني: أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات عذاب القبر ونعيمه

العنصر الأول: عذاب القبر ونعيمه.

الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، متواترة لفظًا ومعنى، من الكتاب والسنة.

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم:

1. قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ }، وهذا خطاب لهم عند الموت. قال ابن عباس وغيره: هذا عند الموت، والبسط هو الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم. وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ}، فدل على أن المراد به عذاب القبر.
2. وقال الله تعالى: {فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾}، وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال –وهو أظهر: إن من مَاتَ مِنْهُم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتلِ وغيرِهِ؛ فهو وعيد بعذابهم في الدنيا، وفي البرزخ.
3. وقال تعالى: {فَوَقَاهُ اللَّـــــهُ سَـيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُـوءُ الْعَذَابِ }. فذكر عذاب الدارين ذكرًا صـــريحًا لا يحتمل غيره، فدل على ثبوت عذاب القبر. قال القرطبي: "الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ".
4. وقال تعالى: {فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ

أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ } [الواقعة: 83 – 94] فذكر ههنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم الميعاد الأكبر، وقُدّم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام؛ كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

5. وقال سبحانه: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ } [محمد: 27] وهذا العذاب، وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع يوم القيامة، والعذاب إنما أضيف إلى القبرِ؛ لكون معظمِهِ يقعُ فيه.

6. وقال الله –تبارك وتعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ } [التوبة: 101]. قال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: "والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والثانية؛ إما الجوع، أو السبي، أو القتل، أو الإذلال أو غير ذلك".

ثانيًا: أدلة عذاب القبر من السنة النبوية:

وأما نصوص السنة في إثبات عذاب القبر: فقد بلغت الأحاديث في ذلك مبلغ التواتر؛ إذ رواها أئمة السنة، وحملة الحديث، ونقاده عن الجمّ الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، والبراء بن عازب، وعمر بن الخطاب، وابنُه عبد الله وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو أيوب الأنصاري، وأم خالد، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن أرقم، وأبو بكرة، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبوه عمرو، وأم مبشر، وأبو قتادة وعبد الله بن مسعود، وأبو طلحة، وأسماء أيضًا، وعبد الرحمن بن حسنة، وتميم الداري، وحذيفة، وأبو موسى، والنعمان بن بشير، وعوف بن مالك.

وإذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه؛ وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن. وهذه بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

أولًا: عن ابن عباس: ((أن النبي ﷺ مَرَّ بقبرينِ، فقال: إنهما ليعَذَّبَانِ، وما يعذَّبَانِ في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئُ من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة، فشقَّهَا نصفين، فقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)). رواه البخاري ومسلم.

ثانيًا: عن زيد بن ثابت؛ قال: ((بينما رسول الله ﷺ في حائطٍ لبني النجار على بغلتِهِ، ونحن معه إذ حادت به، فكادت تلقيه، فإذا أَقْبُرُ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)) الحديث. رواه مسلم.

ثالثًا: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: ((إذا فرغ أحدُكُم من التشهد الأخير؛ فليتعوّذ بالله من أربعٍ: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنةِ المسيحِ الدجال)). رواه مسلم وأصحاب السنن.

رابعًا: عن أبي أيوب؛ قال: ((خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: يهود تُعذب في قبورها)). رواه البخاري ومسلم.

خامسًا: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((دخلت عليَّ عجوز من عجائز يهود المدينة، فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتها، ولم أنعم أن أصدقها، قالت: فخرجت، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: إن عجوزًا من عجائزِ يهودِ أهلِ المدينةِ دخلتْ فزعمت: أن أهل القبور يعذبون في قبورهم؟ قال: صدقت؛ إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائمُ كلها، قالت: فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر)). رواه البخاري ومسلم.

سادسًا: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولى، وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدِكَ من النار أبْدَلَكَ اللهُ به مقعدًا من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعًا، وأما الكافر، أو المنافق، فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يُضرب بمطرقة من حديد ضربةً

بين أذنيه، فيصيحُ صيحةً يسمعها من يليهِ إلا الثقلين)). رواه البخاري.

ورواه م سلم من طرق عن قتادة بنحوه، وزاد فيه قال قتادة: وذُكر لنا أنه: ((يف سح له في قبره سبعون ذراعًا -يعني المؤمن- ويملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون)) ولهما عنه ﷺ عن النبي ﷺ: ((وأعوذ بك من عذاب القبر)). ولمسلم عنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع)).

سابعًا: عن البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا أُقْعِدَ المؤمنُ في قبره؛ أُتِيَ، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا ر سول الله؛ فذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: 27])). رواه البخاري في مواضع، ووافقه عليه مسلم وغيره.

ثامنًا: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: ((إن رسول الله ﷺ كان يُرِينَا مصارعَ أهل بدر بالأمس، يقول: هذا م صرع فلان غدًا -إن شاء الله تعالى- قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطئُوا الحدودَ التي حدَّ ر سول الله ﷺ قال: فجعلوا في بئر بع ضهم على بعض، وانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًّا؛ فإني قد وجدت ما وعدني الله حقًّا؟ قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها، قال: ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم؛ غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئًا)). رواه مسلم من طرق عنه.

ولأبي داود والنسائي وابن ماجه عنه ﷺ: ((أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجبن والبخل، وعذاب القبر، وفتنة الصدر)). وأما حديث عبد الله بن عمر { فقال البخاري -رحمه الله تعالى- باب: الميت يعرض بالغداة والعشي: حدثنا إسماعيل، قال: حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر { أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)). وله عنه ﷺ قال: ((اطلع النبي ﷺ على أهل القليب، فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون)). هذه بعض الأحاديث، وإلا فهي كثيرة جدًّا، جمع جملة منها البيهقي في كتابه (إثبات عذاب القبر).

العنصر الثاني: شبهات في عذاب القبر ونعيمه والرد عليها.

ذهب أهل الـ سنة والجماعة إلى أن الإنـ سانَ يـ سأل في قبرِهِ وينعَّمُ، أو يعذب فيه، وأن ذلكَ يَقَعُ على الروح والجسد معًا، وتظاهرت بذلك نصوص الشريعة من الكتاب والسنة، وأجمع على ذلك أئمة السنة من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة. وخالف في ذلك بعضُ الناسِ، وعار ضوا نـ صوص الكتاب والـ سنة، بل والإجماع بآرائهم، وردُّوا معانيها إما جملةً، وإما تفصيلًا، على ما سنذكره فيما يلي:

1. ذهب بعض الخوارج، وبعض المعتزلة، كضرار بن عمرو، وبشر المريسي إلى نفي عذاب القبر مطلقًا. واســـتدلوا لما ذهبوا إليه بقول الله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ } [الدخان: 56]، وقوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ } [فاطر: 22]. وا ستدلوا أيـ ضًا بحجةٍ عقلية داحـ ضة فقالوا: إننا نرى شخصًا يصلب، ويبقى مصلوبًا إلى أن تذهب أجزاؤه، ولا نشاهد فيه إحياءً ولا مـ ساءلةً، وكيف يعذب من أكلَته الـ سباع والطيور، وتفرقت أجزاؤه في بطونها، ومن أحرق حتى يفتت، ثم تذرى أجزاؤه في الرياح. هذه خلا صة شبههم الداحـ ضة، ومحـ صلة آرائهم الفاسدة.

والجواب عن الشبهةِ الأولَى: أن الآية لا تدل على مدعاهم بوجْهٍ؛ فإنها في صفةِ أهلِ الجنة، وما لهم فيها من كمالِ النعيمِ، والخلدِ المقيم، وأنهم لا يذوقونَ فيها الموت، بل ينعمون، ولا يبأســـون، ويخلدون فلا يموتون، وأين هذا من نفي عذاب القبر الذي ادَّعُوه، وقوله: {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ} تأكيد لنفي الموت عنهم في الجنة، وما المانع من كونِ الروحِ تتصل بالجسدِ في البرزخ اتصالًا خاصًّا؛ ليتألم الجسدُ بما يتألَّمُ به من دونِ أن تكون حياته كالحياة الدنيوية، بل ما المانع من كونها حياة مســـتقرة لا تشـــبه الحياة الدنيا، وهي أعظم منها، فحَجَبَ الله – تعالى– رؤيةَ ذلك عن عبادِهِ؛ رحمةً منه بهم.

كما يدل عليه ما أخبر بهِ ﷺ في الأحاديث الآتية من الإقعاد، والمخاطبة، والسؤال، والجوابِ، كفاحًا كما يشاء الله ﷻ والفتح لبابِ الجنة للمؤمن، وفرشه منها، وفتح باب النار للمرتاب، وقمعه بالمطارق والمرازب، وغير ذلك.

وأيضًا فأهل الجنة المشار إليهم بقوله: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ} قد وردت فيهم الأحاديث الصحيحة: ((أن أرواحَهُم تسرح في الجنة في حواصل طيور خضر)) كما روى الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الإمام محمد بن شهاب الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: ((إنما نسمةُ المؤمن طائرٌ يعلَّقُ في شجرِ الجنة حتى يرجعه الله -تعالى- إلى جسدِهِ يوم يبعثه))، وفيهم الشهداء الذين قال الله -تعالى- فيهم: {وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ} [البقرة: 154].

يقول الله -تعالى- لنبيه وأصحابه: {وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ}، ويقول تعالى فيهم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: 169] الآيات. وذلك بخلاف الذين كفروا؛ فإنهم كما قال الله -تعالى- فيهم: {قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} [غافر: 11].

والموتة الثانية على أحد التفسيرين هي موتتهم بعد فتنة القبر، وتفسير الجمهور لا ينافي ذلك؛ فإنهم حملوا الموتة الأولى على العدم الذي قبل وجودهم. والثانية على الخروج من الدنيا، ولم يعدوا نومتهم بعد الفتنة في القبر موته مستقلة؛ لأن حال البرزخ من الموتة الثانية: وليس هو من دار الدنيا، ولا دار الآخرة، بل هو حاجز بينهما، والتفسير الأول محمول على موتتين بعد الوجود؛ خلا حالة العدم المحض قبل إيجادهم.

وروى ابن أبي حاتم بسندِهِ عن أبي هريرة، قال: "إذا وضع -يعني: الكافر في قبره يرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب ارجعون أتوب، وأعمل صالحًا، قال: فيقال: قد عُمّرت ما كنت معمرًا، قال: فيضيق عليه قبره، ويلتئم فهو كالمنهوش ينام، ويفزع تهوى إليه هوام الأرض، وحيَّاتها وعقاربها".

وعن الشبهة الثانية الجواب من وجهين:

الأول: أن قوله: {وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ } نفيٌ لا ستطاعة الر سول ﷺ أن يـ سمعهم، وليس ذلك بمحال في قدرة الله أن يســـمعهم كما أسمع أهل القليب تبكيته ﷺ بقوله ﷺ: ((هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟)) وهذا إذا حمل على نفي مطلق السماع بالكلية.

الوجه الثاني: أنه لم ينفِ مطلق السماع، وإنما نفى سماع الاستجابة، كما يدل عليه قوله ﷺ في حديث القليب: ((ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون)) وبهذا يتضـــح تشـــبيه الكفار بهم فإن الكفار كانوا يـ سمعون كلام النبي ﷺ ويـ سمعون منه كلام الله –تعالى– وهو يتلوه عليهم، ولكن ليس ذلك بسماع استجابة ولهذا أثبت تعالى هذا السماع الظاهر لهم في قوله تعالى: { يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الجاثية: 8] ولو كان الكفار لم يـ سمعوا مطلقًا لا سماع ا ستجابة ولا مطلقًا لم يكن القرآن حجةً عليهم، ولم يكن الرسول ﷺ بلغهم؛ لأنهم ما سمعوه منه، ولأفسد من قول هذا لازمه.

وأما **شبهتهم العقلية**؛ فإن الروح التي عليها العذاب أو النعيم المت صل بالج سم ألمه ليس بمدرك في الدنيا، ولا يعلمه إلا الله، فمن كان لا يدرك روح من يمشـــي معه، ويكلمه ويأتمنه ويعامله، فكيف يُدركه إذا صـــار من عالم الآخرة ليس من عالم الدنيا، وأيضـــًا فاحتجاب ذلك عن أهل الدنيا من حكمة الله –تعالى–البالغة، ورحمته بهم، وقد قال النبي ﷺ: ((لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوتُ الله ﷻ أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع)).

وأيضـــًا فأكثر أمورِ الإيمان اعتقاداتٌ باطنة من الأمور غائبة عنا، وهي أعلى صـــفات أهل الإيمان: { ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰـــهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة: 3] وذلك غائب عنا في الحياة الدنيا ونحن نعلمه عن الله علم اليقين، فإذا خرجنا من هذه الدار صـــار الغيب شهادة.

ورأينا ذلك عين اليقين: { بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ } [يونس: 39] والذي أحرقت أعضاؤه، وتفرقت أجزاؤه يجمعه الذي أبدأه من لا أجزاء ولا أعضاء. ولا فرق بين من كذب بجمع هذا وبين من كذب بجمع

الناس ليوم لا ريب فيه { وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } [الأعراف: 39] الآية.

2. وذهب جماعة من الكَرَّامية: إلى أن العذاب يقع على الجسد فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكًا؛ بحيث يسمع ويعلم، ويلذ ويألم، واستدلوا بقصة مخاطبة النبي ﷺ لأصحاب القليب في بدر، فقد كان يخاطبهم قبل أن تعود الروحُ إليهم، وكانوا يسمعونه، وهكذا يكون السؤال في القبر.

والجواب: أن هذا لا يصلح دليلًا لما يدعونه، والأحاديث الصحيحة الكثيرة بخلاف ذلك، وهي تنص على الإقعاد والمخاطبة، وإجابة الإنسان على أسئلة الملكين، وغير ذلك مما يدل على وجود الروح.

3. وذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، واستدلوا بأن الميت قد يشاهد في قبره حال المسألة، ولا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة.

والجواب: أن ذلك غير ممتنعٍ في قدرةِ الله -تعالى- بل له نظيرٌ في العادة وهو نائم، فإنه يجد لذةً وألمًا لا يدركه من يشاهده، بل إن اليقظان قد يجد ألمًا ولذة لما يفكر به، ولا يدرك ذلك من حوله، والمريضُ يتألمُ بجسمه، ولكننا لا ندرك ذلك إلا إذا صرخ من الألم مثلًا.

وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى رسول الله ﷺ وأصحابُه حضور؛ فيراه رسول الله ﷺ، ولا يراه أحد من أصحابه.

4. وذهب أبو الهذيل من تبعه إلى أن الميت لا يشعر بالتعذيب، ولا بغيره إلا بين النفختين، فهو كالنائم والمغشي عليه لا يحس بالضرب إلا بعد الإفاقة.

وهذه دعوى عارية عن الدليل، إلا مجرد الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، والنصوص كلها تدل على نقيض ذلك.

5. وذهب بعض المعتزلة: إلى أن العذاب يقع على الكفار دون المؤمنين، واستدلوا بقول الله تعالى: {وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ } الآية.

والجواب: أن ذلك لا يلزم منه عدم وقوعه على المؤمنين، وأحاديث عذاب عصـــاة المؤمنين في القبر كثيرة؛ منها أحاديث عذاب القبر في البول والغيبة، وقد خصـــص البيهقي -رحمه الله- بابًا في تخويف أهل الإيمان من عذاب القبر.

6. وذهب بعضهم: إلى أنه يسأل المؤمن والمنافق، وأما الكافر فلا يسأل، واستدلوا بما رواه عبد الرزاق من طريق عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال: إنما يفتن رجلان: مؤمن ومنافق، وأما الكافر: فلا يسأل عن محمد ولا يعرفه.

والجواب: أن هذا موقوفٌ، والأحاديث الناصـــة على أن الكافر يســـأل مرفوعةٌ مع كثرة طرقها الصحيحة فهي أولى بالقبول.

الدرس العاشر: تتمة الحديث عن عذاب القبر، ومسائل أخرى في الحياة البرزخية

عناصر الدرس

العنصر الأول: ذكر بعض أسباب عذاب القبر

العنصر الثاني: هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع؟ والحكمة في عدم الاطلاع عليه

العنصر الثالث: الحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن

العنصر الرابع: الأدلة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبّب فيها في حياته

العنصر الخامس: حكم الدعاء للميت، وذكر الأقوال في الانتفاع به

العنصر الأول: ذكر بعض أسباب عذاب القبر.

بعد أن ذكرنا الأدلة المتنوعة على إثبات عذاب القبر، يحسن أن نذكر لوازم ذلك وتتماته من أسباب عذاب القبر، والأسباب المانعة من ذلك، وكذلك لا بد من بيان توابع ذلك من المسائل المتعلقة بحياة البرزخ:

الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل:

أما المجمَلُ: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته، وأحبته، وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا؛ فإن عذاب القبر، بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله، وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه، ولم يتب ومات على ذلك، كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقِلٌّ ومستكثر، ومصدِّقٌ ومكَذِّب.

وأما المفصل: فقد أخبر رسول الله ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما: أن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول، والحديث في الصحيحين وغيرهما، ولفظه: ((مرَّ النبيّ ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهُمَا فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز على قبر منهما واحدة. قالوا: لم فعلت هذا يا رسول الله؟ قال: لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا)).

قال الحافظ ابن رجب في كتابه (أهوال القبور): وقد روي هذا عن النبي ﷺ بهذا المعنى من وجوهٍ متعددة، من حديث أبي بكر وعائشة، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي أمامة وغيرهم من الصحابة }.

قال المحقق ابن القيم في (الروح): فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقًا، وفيه تنبيهٌ على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابًا، كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيهًا على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض شروطها أشد عذابًا. وفي حديث شعبة: ((أما أحدهُمَا فكان يأكل لحوم الناس، فهذا مغتاب، وذاك نمام)).

وفي (صحيح البخاري) في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق. وفي حديث ابن مسعود في الذي ضرب في قبره سوطًا امتلأ القبر عليه نارًا؛ لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور، ومرّ على مظلوم فلم ينصـــره. وتعذيب من يقرأ القرآن، ثم ينام عنه بالليل، ولا يعمل به في النهار. وتعذيب الزناة والزواني، وتعذيب آكل الربا، كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وحديث أبي هريرة وفيه: رضخ رءوس أقوام بالصخر؛ لتثاقل رءوسهم عن الصلاة، والذين يأكلون الزقوم والضـــريع؛ لتركهم الزكاة، والذين يأكلون اللحم المنتن لزناهم، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب.

ومن الذين يُعذّبون في قبورهم وأخبر عنهم النبي ﷺ: الجبارون والمتكبرون، والمراءون، والهمَّازون واللمَّازون، والطعانون، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرَّافِينَ فيســـألونهم، ويصـــدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، ونحو هؤلاء ممن يشـــتغل بذنوب الناس عن ذنبه، وبعيوبهم عن عيبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يُعذّبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحســـب كثرتها وقلتها، وصـــغرها وكبرها، ولما كان أكثر الناس كذلك، كان أصـــحاب القبور معذبين، والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حســـرات وعذاب.

ويحسن في هذا المقام أيضًا أن نذكر بعض الأسباب المنجية من عذاب القبر، ومنها أيضًا مجملٌ ومفصل.

أما المجمل: فهو بحسب تلك الأسباب التي تنجي من العذاب، ومن أنفعِهَا أن يجلس عندما يريد النوم لله ساعةً يحاسب بها نفسه فيما خسره، وربحه في يومه، ثم يجدّد له توبةً نصوحًا بينه وبين الله، فينامُ على تلك التوبة، ويعزمُ على أن لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلتِهِ مات على توبةٍ، وإن استيقظ استيقظ مستقبلًا للعمل مسرورًا بتأخير الأجل، وليس للعبدِ أنفعُ من هذه التوبة؛ ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله، واستعمال السنن، والتي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله.

وأما المفصل: فمنها ما رواه مسلم في (صحيحه) من حديثِ سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: ((رباطُ يومٍ في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أُجْرِيَ عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)).

وفي (سنن الترمذي) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((كل ميتٍ يختم عليه عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله؛ فإنه يجرى عليه عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر)). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وتقدم ذكر الشهداء، وأيضًا الذي يقرأ "تبارك" الملك؛ فعن ابن عباس { قال: ضرب رجل من أ صحاب النبي ﷺ خباءة على قبر، وهو لا يحـ سب أنه قبر، فإذا قبر إنـ سان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر، أنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنـ سان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال ر سول الله ﷺ: ((هي المنجيةُ؛ تنجيه من عذاب القبر)). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

العنصر الثاني: هل يدوم عذاب القبر أم ينقطع؟ والحكمة في عدم الاطلاع عليه

عذاب القبر نوعان: نوع دائم سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا: { قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ } [يس: 52]، ويدلّ على دوامه قوله تعالى: { ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ } [غافر: 46] ويدل عليه أيضًا حديث سمرة الذي رواه البخاري في رؤيا النبي ﷺ وفيه: ((فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة)).

وفي حديث ابن عباس في قصـــة الجريدتين: ((لعله يخفف عنهما ما لم تيبســـا))، فجعل التخفيف مقيدًا برطوبتهما فقط، وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة، ثم أتى على قوم تر ضخ رءو سهم بالـ صخر كلما ر ضخت عادت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، وفي (الـ صحيح) في قـ صة الذي لبس بردين وجعل يمـ شي يتبختر؛ فخـ سف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفي حديث البراء بن عازب في قصـــة الكافر: ((ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الســـاعة)). رواه الإمام أحمد. وفي بعض طرقه: ((ثم يخرق له خرق إلى النار

فيأتيه من غمِّهَا ودخانها إلى القيامة)).

النوع الثاني: إلى مدة ثم ينقطع. وهو عذاب بعض العصـــاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب. وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء، أو صدقة، أو ا ستغفار، أو ثواب حج، أو غير ذلك مما ورد به النص، وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته، والله ﷻ لا يتقدم أحد بالـ شفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، فهو الذي يأذن للـ شافع أن يـ شفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له، ولا تغتر بغير هذا؛ فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه: { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ } [البقرة: 255] { وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ } [الأنبياء: 29] { إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [يونس: 3] {وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ } [سبأ: 23] {قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [الزمر: 44].

العنصر الثالث: الحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن.

بيان المراد بالحياة التي اختص بها الأنبياء والشهداء، وأنواع تعلقات الروح بالبدن:

من الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء بعد موتهم، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((أَتَيْتُ –وفي رواية: مررت عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ)) رواه مسلم.

وفي هذا الحديث مسائل، ودلائل على هذه المسألة نجملها فيما يلي:

أولًا: في هذا الحديث دليل على حياة الأنبياء بعد موتهم، وأنهم يتميزون عن سائرِ الأمواتِ، إلا الشهداء، بأن الله يحييهم مرةً أخرى حياة خاصة، فيها من النعيم والكرامة ما لا يتعرض له أحد من الناس.

وقد دلَّتْ على ذلك أدلةٌ أخرى كثيرة، من أصحها وأشهرها حديث الإسراء والمعراج؛ حيث جاء فيه: ((أن النبي ﷺ رأى الأنبياء في السماوات، وصلى بهم إمامًا في بيت المقدس)).

ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون)). رواه البزار، وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة).

وقد قرر ذلك أهل العلم في كتبهم؛ حتى صنف الإمام البيهقي في هذه المسألة جزءًا بعنوان: (حياة الأنبياء بعد وفاتهم)، وصنف الإمام السيوطي جزءًا بعنوان: (إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء).

وقال البيهقي -رحمه الله: "لِحياة الأنبياء بعد موتهم -صلوات الله عليهم- شواهدُ من الأحاديث الصحيحة". انتهى؛ من (حياة الأنبياء). وقال السيوطي -رحمه الله: "حياةُ النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علمًا قطعيًّا؛ لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار". انتهى؛ من (الحاوي للفتاوي).

ثانيًا: قال القرطبي -رحمه الله: "وهذا الحديث يدل بظاهره على: أنه ﷺ رأى موسى رؤيةً حقيقيةً في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حيًّا، يصلي فيه الصلاة التي كان يصليها في الحياة، وهذا كله ممكن لا إحالة في شيء منه، وقد صح أن الشهداء أحياء يرزقون، ووجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين، وإذا كان هذا في الشهداء كان في الأنبياء أحرى وأولى". انتهى؛ من (المفهم).

وقال ابن القيم -رحمه الله: "الأنبياء إنما استقرت أرواحُهُم هناك يعني: في السماء بعد مفارقة الأبدان، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حالِ الحياة، ثم عادت -يعني: في الإسراء والمعراج- وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومع هذا فلها إشراف على البدن، وإشراق، وتعلق به، بحيث يرد السلام على من

سلم عليه، وبهذا التعلق رأى موسى قائمًا يصلِّي في قبره، ورآه في السماء السادسة.

ومعلوم: أنه لم يعرج بمو سى من قبره ثم ردّ إليه، وإنما ذلك مقام روحه وا ستقرارها، وقبره مقام بدنه وا ستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجـ سادها، فرآه يـ صلي في قبره، ورآه في الـ سماء الـ ساد سة، كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مـ ستقرًّا هناك، وبدنه في ضريحه غير مفقود، وإذا سلم عليه المُ سَلِّم ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه الـ سلام، و لم يفارق الملأ الأعلى.

ومن كَثُف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا، فلينظر إلى الشـــمس في علو محلها، وتعلقها وتأثيرها في الأرض، وحياة النبات والحياة بها، هذا؛ وشـــأن الروح فوق هذا، فلها شأن، وللأبدان شأن، وهذه النار تكون في محلِّهَا، وحرارتها تؤثر في الجسم البعيد عنها، مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم، فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف". انتهى؛ من (زاد المعاد).

وقال الشـــيخ الألباني –رحمه الله: "حياته ﷺ بعد وفاته مخالفةٌ لحياته قبل الوفاة؛ ذلك أن الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري كنهَها إلا الله ﷻ ولكن من الثابت والمعلوم أنها تختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تخـ ضع لقوانينها، فالإنـ سان في الدنيا يأكل ويـ شرب ويتنفس، ويتزوج، ويتحرك، ويتبرز، ويمرض ويتكلم، ولا أحد يســـتطيع أن يثبت أن أحدًا بعد الموت حتى الأنبياء –عليهم الـ سلام– وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ تعرض له هذه الأمور بعد موته.

ومما يؤكد هذا أن الـ صحابة } كانوا يختلفون في مـ سائل كثيرة بعد وفاته، و لم يخطر في بال أحد منهم الذهاب إليه ﷺ في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها؛ لماذا؟

إن الأمر واضـــح جدًّا، وهو أنهم كلهم يعلمون أنه ﷺ انقطع عن الحياة الدنيا، و لم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميـ سها، فر سول الله ﷺ بعد موته حي أكمل حياة يحياها إنـ سان في البرزخ، ولكنها حياةٌ خاصة لا تشبه حياة الدنيا، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: ((ما من أحَدٍ يسلم عليَّ إلا رَدَّ اللهُ علي روحي حتى أرد عليه الســـلام))، وعلى كل حال فإن حقيقتها لا يدريها إلا الله ﷻ ولذلك فلا يجوز قياس الحياة البرزخية، أو الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، كما

لا يجوز أن تعطى واحدة منها أحكام الأخرى، بل لكل منها شكلٌ خاص، وحكم معين، ولا تتشابه إلا في الاسم، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله -تبارك وتعالى". انتهى؛ من كتابه (التوسل).

ثالثًا: صلاة موسى عليه السلام وسائرِ الأنبياء في قبورهم ليست على وجه التكليف؛ إذ التكليف منقطع بالموت، وإنما هي على وجه التنعم والتلذذ بعبادة الله وإقامة ذكره. قال القرطبي -رحمه الله: "فإن قيل: كيف يصلون بعد الموت، وليس تلك الحال حال تكليف؟

فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حببت لهم عبادة الله -تعالى- والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله -تعالى- بعد موتِهم بأن أبقى عليهم ما كانوا يحبون، وما عرفوا به، فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة، لا تكليفية، وقد وقع مثل هذا لثابت البناني رضي الله عنه؛ فإنه حببت الصلاة إليه حتى كان يقول: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا يصلي لك في قبره، فأعطني ذلك، فرآه مُلَحِّدُهُ بعدما سوَّى عليه لحده قائمًا يصلي في قبره، وقد دلَّ على صحة ذلك كله قول نبينا ﷺ: ((يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه))، وقد جاء في الصحيح: ((أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون التنفس))". انتهى؛ من (المفهم).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "هذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت، ويتنعم بها كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح، فإنهم يلهمون التسبيح كما يُلهم الناس في الدنيا النَّفَس؛ فهذا ليس من عمل التكليف الذي يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به". انتهى؛ من (مجموع الفتاوى).

رابعًا: حياة الأنبياء بعد موتهم، وخصائصها، وكيفيتها، وما يتعلق بذلك: كله أمر غيبيٌّ لا يرجعِ المرء من تكلف التنقير عنه بطائل، فالتسليم أولى، وتفويض العلم إلى الله هو الواجب ابتداءً وانتهاءً.

وكل ذلك حق يجب الإيمان به والتسليم له، وإثبات أن رسول الله ﷺ رأى موسى عليه السلام في قبره يصلي، ورآه أيضًا في السماء، والله على كل شيء قدير، ولا يجوز إنكارُ ما ثبت في النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ لحَيرة العقول فيه، أو قياس عالم الغيب وعالم البرزخ على

عالم الشهادة، أو دعوى أن ذلك من مختلقات اليهود، فكل ذلك خطأ و ضلال، وانحراف عن الصراط المستقيم.

وما ورد أن النبي ﷺ رأى موسى وهو يصلي في قبره، ورآه يطوف بالبيت، ورآه في السماء، وكذلك الأنبياء؟

فهذه الأحاديث وأشباهها تُمَرُّ كما جاءت، ويُؤمَن بها؛ إذ لا مجال للعقل في ذلك؛ ومن فتح على نفسه هذا الباب هلك في جملة من هلك.

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله: قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ } الآية، هذه الآية تدل بظاهرها على أن الشهداء أحياءٌ غير أموات، وقد قال في آية أخرى لمن هو أفضل من كل الشهداء ﷺ: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } [الزمر: 30]

والجواب عن هذا: أن الشهداءَ يموتون الموتةَ الدنيوية، فتورث أموالهم، وتنكح نساؤهم بإجماع المسلمين، وهذه الموتة التي أخبر الله نبيه أنه يموتها ﷺ، وقد ثبت في الصحيح عن صاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه قال لما توفي النبي ﷺ: "بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد مِتها" وقال: "من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات" واستدل على ذلك بالقرآن، ورجع إليه جميع أصحاب النبي ﷺ.

وأما الحياة التي أثبتها الله للشهداء في القرآن، وحياته ﷺ التي ثبت في الحديث أنه يرد بها السلام على من سلم عليه: فكلتاهما حياة برزخية، ليست معقولة لأهل الدنيا.

أما في الشهداء: فقد نص تعالى على ذلك بقوله: { وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ }، وقد فسرها النبي ﷺ بأنهم: تجعل أرواحهم في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فهم يتنعمون بذلك.

وأما ما ثبت عنه ﷺ من أنه "لا يسلم عليه أحدٌ إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام" و"أن الله وَكَّل ملائكته يبلغونه سلام أمته"؛ فإن تلك الحياة أيضًا لا يعقل حقيقتها أهل الدنيا؛ لأنها ثابتة له ﷺ مع أن روحه الكريمة في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى، فوق أرواح الشهداء، فتعلق هذه الروح الطاهرة التي هي في أعلى عليين بهذا البدنِ الشريف الذي

لا تأكله الأرض يعلم الله حقيقته، ولا يعلمها الخلق، كما قال في جنس ذلك: { وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ }.

ولو كانت كالحياة التي يعرفها أهلُ الدنيا لما قال الـ صديق رضي الله عنه إنه ﷺ مات، ولما جاز دفنُه، ولا نصب خليفة غيره، ولا اختلف أصحابه، ولا جرى على عائشة ما جرى، ولسألوه عن الأحكام التي اختلفوا فيها بعده، كالعول، وميراث الجد، والإخوة، ونحو ذلك.

وإذا صرح القرآن بأن الـ شهداء أحياءٌ في قوله تعالى: { بَلْ أَحْيَآءٌ }، و صرح بأن هذه الحياة لا يعرف حقيقتها أهل الدنيا بقوله: { وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ } وكان النبي ﷺ أثبت حياته في القبر بحيث يسمع السلام ويرده، وأصحابه الذين دفنوه ﷺ لا تشعر حواسهم بتلك الحياة، عرفنا أنها حياة لا يعقلها أهل الدنيا أيـ ًضا ومما يقرب هذا للذهن حياةُ النائم، فإنه يخالف الحي في جميع التـ صرفات، مع أنه يدرك الرؤيا، ويعقل المعاني والله –تعالى– أعلم". انتهى؛ من (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب). والله أعلم.

العنصر الرابع: الأدلة على انتفاع الميت بالأعمال التي تسبّب فيها في حياته

إنّ الميت ينتفع بأعمال نفسه: وهذه الأعمال قسمان:

- قسم عمله المسلم وهو حي،
- وقسم عمله الآخرون، ولكنَّ الميت كان سببًا في عمل الغير.

قال تعالى: {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ } [النجم: 39 – 41]، وهذا النص يدل على أن الإنسان ينتفع بأعمالِهِ التي عملها في الدنيا، ومع أن ظاهرهُ الحصر إلا أنه لا يفيد الحصر؛ لأنّ النصوص الأخرى توسع هذا المعنى الظاهر، والمراد من النص هو الحضُّ على فعل الخير، وأن هذا الفعل سوف يكون لصاحبه يوم القيامة غير منقوصٍ قيد أنْمُلَة.

قال ر سول الله ﷺ: ((إذا مات ابن آدم انقطعَ عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) رواه مسلم، وهنا نجد توسيعًا للحصر السابق: { وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ } فللإنسان الميت ثوابُ الصدقة ما دامت جارية، وثواب العلم النافع ما

دام جاريًا، والثوابُ من الولد الصالح ما دام يدعو لوالده الميت.

وقال رســـول الله ﷺ: ((إن مِمَّا يلحق المؤمن من عمله وحســـناته بعد موته: علمًا علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا بناه لابن السبيل، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحتِهِ وحياته، تلحقه من بعد موته)). رواه ابن ماجه. وفي هذا الحديث توسيع وتفصيل للحديث السابق؛ حيث أضاف أربعة أمور وهي: ((مصحفًا ورثه، مسجدًا بناه، بيتًا بناه لابن السبيل، نهرًا أكراه)) إلى الثلاثة السابقة، وهي: ((صدقة جارية، علم ينتفع به، ولد صالح يدعو له)).

وقال رسول الله ﷺ: ((من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرُهَا، وأجرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً؛ فعليه وزرُهَا وَوِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقصَ من أوزارهِم شيئًا)) رواه مسلم.

وهذا الحديث أضاف إلى الأحاديث السابقة معنى آخر، وهو أن المسلم ينتفع بأعمال الخير التي يعملها غيره إذا كان سببًا في عملها، وأضاف معنى ثانيًا: وهو أن المسلم يتضرر بأعمال الشر التي يعملها غيره إذا كان سببًا في عملها، تمامًا كما يتضرر بأعمال الشر التي كان يعملها في حياته، وأضاف معنى ثالثًا، وهو المساواةُ في أجر عمل الخير، والمساواة في وزر عمل الشر بين العامل والمتسبب.

العنصر الخامس: حكم الدعاء للميت.

دلت النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع على انتفاع الميت بالدعاء له، فمما جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى: { وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ } [الحشر: 10] فأثنى الله –سبحانه–عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم؛ فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم؛ لأنهم سنُّوا لهم الإيمان بسبقهم إليه؛ فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم؛ لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي الـ سنن من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ر سول الله ﷺ: ((إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)). وفي (صحيح مسلم) من حديث عوف بن مالك قال: ((صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه، وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافِهِ واعْفُ عنه، وأكْرِم نزله وأو سع مدخله، واغسله بالماء، والثلج والبرد، ونقِّهِ من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من دارِه، وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذْهُ من عذاب القبر، وعذاب النار)).

وفي السنن عن وَاثِلَةَ بن الأسقع قال: ((صلّى رسول الله ﷺ على رجلٍ من المسلمين فسمعته يقول: اللهم إن فلان بن فلان في ذِمَّتِكَ، وحبل جوارك، فَقِهِ من فتنةِ القبر، وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له، وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم)). و هذا كثيرٌ في الأحاديث، بل هو المقصودُ بالصلاةِ على الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن.

وفي الســـنن من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: ((كان النبيُّ إذا فَرَغَ مِن دفْنِ الميتِ، وقف عليه، فقال: استغفروا لأخِيكُم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآنَ يُسْأَل)).

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في (صـــحيح مســـلم) من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمـ سلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نـ سألُ اللهَ لنا ولكُم العافية)).

وفي (صحيح مسلم) أن عائشة < سألت النبي ﷺ كيف أقول إذا ا ستغفرت لأهل القبور قال: ((قولي الـ سلام على أهل الديار من المؤمنين والمـ سلمين، ويرحم الله المـ ستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لَلَاحقون)).

وفي (صحيحه) عنها أيضًا: أن رسول الله ﷺ خرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال: ((الـ سلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدًا مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأ هل بقيع الغر قد)) ودعاء النبي ﷺ للأموات فعل وتعليم، ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصرًا بعد عصر أكثر من أن يذكر، وأشهر من أن ينكر، وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد في الجنة؛ فيقول: أنى لي هذا؟! فيقال: بدعاء ولدك لك.

الدرس الحادي عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (1)

عناصر الدرس

العنصر الأول: ذكر الأدلة الشرعية والعقلية على تقرير البعث

العنصر الثاني: ذكر بعض مسالك القرآن في تقرير البعث

العنصر الأول: ذكر الأدلة الشرعية والعقلية على تقرير البعث.

إن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، وعليه يتطلب الأمر دراسة متعلقاته، ولوازمه، ومن ذلك الإيمان بالبعث.

اعلم: أن وقوع البعث من القبور قد دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة؛ أخبر الله عنه في كتابه العزيز، وأَقَامَ عليه الدليلَ، ورد على منكريه في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن العظيم، وقد أخبرت عنه جميع الأنبياء أممها، وطالبت المنكرين بالإيمان به، ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتمَ الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين؛ بين تفصيل الآخرة تفصيلًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء قبله.

فوجب الإيمان به، والتصديق بموجبه، وهو أن يبعث الله -تعالى- الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الأ صلية، ويعيد الأرواح إليها، لقوله تعالى: { قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس: 79].

والقيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم -عليهم الصلاة والسلام. وقد أخبر الله من حين أهبط آدم بالقيامة: فقال تعالى: { فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ } [البقرة: 36]، وقال: { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } [الأعراف: 25]، ولما قال إبليس اللعين: { قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ } [الحجر: 36، 37].

وقال نوح عليه السلام لقومه: { وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا } [نوح: 17، 18].

وقال إبراهيم عليه السلام : { وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ } [الشعراء: 82]، وموسى عليه السلام قال الله له: { إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ } [طه: 15]، وقال موسى في دعائه: { وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: 156].

وقد أخبر الله أن الكفار إذا أدخلوا النار يقرون أن رسلهم أنذرهم هذا اليوم؛ كما في قوله

تعالى: { وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ } [الزمر: 71] فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم –عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

وقد أخبر الله –تعالى– أن الموتى يقومون من قبورهم إذا نفخ في الصـــور النفخة الثالثة قال تعالى: { وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر: 68]، وقال تعالى: { وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ } [يس: 51].

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((ينزل من السماء الدنيا ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى؛ إلا عظم واحد –أو عُظَيم واحد– وهو عجب الذنب، منه يركب الخلق يوم القيامة)). وفي رواية مسلم: ((إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، منه يُركب الخلق يوم القيامة. قالوا: أي عظم هو يا رســـول الله؟ قال: عجب الذنب)).

قال العلماء: وعجب الذنب هو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب. وقد جاء في الحديث أنه مثل حبة الخردل؛ منه ينبت جسم الإنسان، وقد استبعد المشركون إعادة الناس في حياة أخرى بعد الموت، فأنكروا البعث والنشور.

فأمر الله نبيَّه أن يقسم به على وقوعه، وأنه كائنٌ لا محالة: فقال تعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ } [سبأ: 3] وقال تعالى: { وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } [يونس: 53] وقال تعالى: { زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ } [التغابن: 7]. وأخبر عن اقتراب ذلك، فقال: { ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ } [القمر: 1]، { ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء: 1].

وذم المكذبين بالبعث، فقال: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَ{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ

أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ }ا كَانُواْ مُهْتَدِينَ { [يونس: 45] [الشورى: 18]، { وَمَن يَهْدِ ٱللَّـهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّـهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } [الإسراء: 97، 99]، وقال: { وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا }، فرد الله عليهم بقوله: { قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 49 - 52].

قال شارح (الطحاوية) على هذه الآيات الكريمة: "فتأمَّل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل؛ فإنهم قالوا أولًا: { وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا }؟ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم؛ فهلَّا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك! فإن قلتم: كنا خُلِقْنا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتِكُم خلقًا جديدًا؟! وللحجة تقديرٌ آخر هو: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أكبر منهما؛ فإنه قادر على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة؛ فما الذي يعجزه فيما دونها؟! ثم أخبر أنهم يسألون سؤالًا آخر بقوله: { مَن يُعِيدُنَا } إذا فنيت جسومنا واستحالت! فأجابهم بقوله: { قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الإسراء: 51] فلما أخذتهم الحجة؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع، وهو قولهم: { مَتَىٰ هُوَ }! فأجابهم بقوله: { قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا }.

وقال الله -تبارك وتعالى- في معرض الرد على مكذبي البعث: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [يس: 78 - 83].

والذي ضرب المثل أحد ملاحدة العرب، وكتب الـ سنة تذكر أن هذا الكافر الملحد جاء بعظم بالٍ، ثم فتته، ثم نفخه، ثم قال للرســـول ﷺ: "يا محمد! أتزعم أن الله يبعث هذا؟". فأنزل اللهً الحق -تبارك وتعالى- هذه الآيات معيِّرًا هذا الكافر بجهله و ضلاله: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ } فإنه لو كان لبيبًا عاقلًا لم يسأل هذا السؤال، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على الـ سؤال، وقد و ضح النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال: { قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ }:

1. فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنـ شأة الأولى على النـ شأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم ضـــروريًّا أن من قدر على هذه قدر على هذه. وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية؛ لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يـ ستلزم قدرةَ الخالق على المخلوق، وعلمه بتفا صيل خلقه أتبع ذلك بقوله: {قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: 79]، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده و صورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظم وهي رميم؟!

2. ثمَّ أكد الأمر بحجةٍ قاهرةٍ وبرهانٍ ظاهر، يتـ ضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردَةً يابـ سة، والحياة لا بد أن تكون مادتُهَا حارة رطبة، ففيه الدليل والجواب معًا، فقال: { ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } [يس: 80]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبو سة من الـ شجر الأخـ ضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الـ شيء من ضدّه، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

3. ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دو نه بكثير أقدرُ وأقدرُ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشدُّ اقتدارًا، فقال: {أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ

عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ} [يس: 81]، فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامها، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدرُ عليه أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى.

4. ثم أكد -تبارك وتعالى- ذلك وبيَّنه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بدَّ معه من آلة ومُعِين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته، وقوله للمكوَّن: "كُنْ" فإذا هو كائن كما شاءه وأراده: {إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله؛ {فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ} [يس: 83].

العنصر الثاني: ذكر بعض مسالك القرآن في تقرير البعث.

وسنذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور التي استخلصناها من الكتاب الكريم.

أولًا: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة: أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق -تبارك وتعالى- بذلك، فمن آمن بالله، وصدَّق برسوله الذي أرسل، وكتابه الذي أُنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار. وقد نَوَّع الحق -تبارك وتعالى- أساليب الإخبار؛ ليكون أوقع في النفوس، وآكد في القلوب:

1. ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخبارًا مؤكدًا بـ(إنَّ)، أو بـ(إنَّ واللام) كقوله تعالى: { إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ } [طه: 15]، وقوله: { وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ } [الحجر: 85]، وقوله: { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ } [الأنعام: 134]، وقوله: { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ } [المرسلات: 7].

2. وفي مواضع أخرى يقسم الله -تعالى- على وقوعِهِ ومجيئِهِ، كقوله تعالى: { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّـهِ حَدِيثًا } [النساء: 87]. ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: { وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ } [الذاريات: 1 – 6]. وقوله: { وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ } [الطور: 1 – 8].

3. وفي بعض المواضع يأمر رسوله بالقسم على وقوع البعث وتحققه، وذلك في معرض الردِّ على المكذبين به المنكرين له، كقوله: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ } [سبأ: 3].

4. وفي مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد، كقوله: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّـهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ } [يونس: 45].

5. وأحيانًا يمدح المؤمنين بالمعاد { هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّـهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ } [آل عمران: 7 – 9]. وقوله: { الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } [البقرة: 1 – 5].

6. وأحيانًا يخبر أنه وعدٌ صادقٌ، وخبرٌ لازمٌ، وأجل لا شك فيه: { إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } [هود: 103]، { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّـهِ حَقٌّ ۖ

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّـهِ ٱلْغَرُورُ } [لقمان: 33]، { وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ } [سبأ: 29، 30]، وقوله: { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [الذاريات: 5].

7. وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله: { إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا } [المعارج: 6، 7]. وقوله: { أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّـهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل: 1]، وقوله: { ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ } [القمر: 1].

8. وفي مواضع أخرى يمدح نفسه -تبارك وتعالى- بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: { وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان: 3]، وقوله: { أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ } [النمل: 64].

9. وبيَّنَ في مواضعَ أخرى أن هذا الخلق، وذاك البعث الذي يُعجز العباد ويذهلهم سهل يسير عليه: { مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ } [لقمان: 28]، وقال: { أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ } [القيامة: 3، 4].

ثانيًا: الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى: استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياةً جديدة تخلق: أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأمِّ عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرةً أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلًا على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل؛ فالقادر على خلقهم، قادر على إعادة خلقهم، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة { وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا } [مريم: 66، 67].

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب،

فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يُعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، ويُذَكِّر أيـ ًضا بخلقنا نحن –ذرية آدم– فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحوَّل هذا الماء فأ صبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى م ضغة ... إلى أن نُفخ فيها الروح، وجعلها إنسانًا سويًّا.

فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم، قادر على إعادة الخلق، وإحياء الموتى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ } [الحج: 5 – 7].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة: { وَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [العنكبوت: 19، 20]. وقال: { وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ } [الروم: 27].

ثالثًا: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه: قبيح في نظر البشر أن يُرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلًا شديد البأس قويًّا لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف، ومن استطاع أن يبني قصرًا لا يعجزه بناء بيت صغير.

ولله المثل الأعلى، فإن من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذي خلق السماوات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها قال تعالى: { ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } [الإسراء: 98، 99].

وقال: { أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ } [يس: 81]، وقال: { أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ

ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [الأحقاف: 33]، وقال: { لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [غافر: 57].

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص: "فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ. وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك". وقال شارح (الطحاوية): "أخبر تعالى أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، قادر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى".

رابعًا: قدرته -تبارك وتعالى- على تحويل الخلق من حالٍ إلى حال: الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة { وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ } [السجدة: 10]. والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام إذا ذاب وانماع فيه.

وقد بين الحق -تبارك وتعالى- في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويُحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي؛ { إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ } [الأنعام: 95، 96]. من الحبة الجامدة الصماء يُخرج الله نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوبًا جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواء الفضاء.

إن تقلب العباد: موت فحياة، ثم حياة فموت، دليل عظيم على قدرة الله؛ تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة: 28].

الدرس الثاني عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (2)

عناصر الدرس

العنصر الأول: ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه

العنصر الثاني: ذكر بعض أقوال المخالفين في البعث والرد عليها

العنصر الثالث: النفخ في الصور

العنصر الرابع: بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال

العنصر الأول: ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه

قد تقدم الكلام على إثبات البعث، والأدلة النقلية والعقلية على ذلك، وذكرنا مسالك القرآن الكريم في إثبات البعث، وإتمامًا لذلك، وزيادة في التفصيل لبعض المسائل المتعلقة بالبعث:

ذكر الأدلة على إمكان البعث ووقوعه:

يجب الجزم شرعًا أن الله -تعالى- يبعثُ جميع العباد، ويعيدهم بعد إيجادهم بجميع أجزائهم الأصلية، وهي التي من شأنِهَا البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهِم لفصل القضاء؛ فإن هذا حقٌّ ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع، مع كونِهِ من الممكنات، التي أخبر بها الشارع، وكل ما هو كذلك فهو ثابت، والإخبار عنه مطابق، والأصل فيما لا دليل على وجوبه، ولا على امتناعه الإمكان، كما يقوله الحكماء والمتكلمون، من أن كل ما قرع سمعك من الغرائب قدره في حيز الإمكان ما لم يردك عنه قائم البرهان. فمن زعم عدم إعادة المعدوم ألزم بالمبدأ؛ فإن المعاد مثل المبدأ، بل هو عينه أو أيسر كما لا يخفى.

ومما هو معلوم؛ فإن الأنبياء تأتي بما تدركه العقول أو تتحير فيه، ولا تأتي بما تحيله العقول أبدًا، فتأتي بمحارات العقول، لا بمحالات العقول.

وإمكان المعاد إما لأنه إيجاد ما انعدم، أو جمع ما تفرق، أو إحياء ما أميت، وهذه كلها ممكنة لا إحالة في شيء من ذلك أصلًا، مع ما تواتر من أخبار الأنبياء، والكتب السماوية؛ ولا سيما في القرآن العظيم، والذكر الحكيم ما لا مزيد عليه مثل: { وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: 38]، {زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: 7]، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ}، [المؤمنون: 17] { وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ

ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ } [يس: 51]، {أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا } [الإسراء: 51]، { أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ } [القيامة: 3، 4]، {يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ } [ق: 44] { قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } [الأعراف: 29]، { يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ } [الأنبياء: 104]، { أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ } [يس: 81]، { يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ } [الروم: 19] والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًّا أيضًا، ففي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس { قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: ((إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلًا)) زاد في رواية: ((مشاة)) وفي رواية فيهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: ((يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلًا { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ } ...)). والغُرْل: بضم الغين المعجمة، وإسكان الراء، جمع أغرل، وهو الأقلف.

ومثله في الصحيحين من حديث عائشة > قالت: فقلت: الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: ((الأمر أشد من أن يهمهم ذلك)).

العنصر الثاني: ذكر بعض أقوال المخالفين في البعث والرد عليها

الناس في البعث على أربع طوائف:

الأول: إثبات المعاد للبدن والروح جميعًا، وهو قول أهل السنة والجماعة، بل على ذلك أيضًا اتفق المسلمون، اليهود والنصارى.

الثاني: إنكار المعاد للأبدان والأرواح، كما هو اعتقاد مشركي العرب، واليونان والهند.

الثالث: قول من يثبت المعاد للأبدان فقط، هذا القول إلى كثير من المتكلمين من الجهمية والقدرية.

الرابع: المعادُ للأرواح فقط دون الأبدان، وهو قول الفلاسفة أتباع أرسطو من أمثال ابن سينا، وغيره من المنافقين، والصابئين، والمجوس، والباطنية.

والذي عليه أهل السنة والجماعة، وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل ترابًا كما كانت، عدا عجب الذنب كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خُلِقَ وفيه يركب)). رواه مسلم، وهذه الاستحالة ليست أمرًا مستحيلًا فإن النطفة تستحيل علقة، ثم مضغة، ثم تكتمل بشرًا سويًّا، وكذلك في أثناء حياته فهو يبدأ طفلًا ثم شابًّا، ثم كهلًا، وهكذا الإعادة، يُعاد الخلق بعد أن استحالوا ترابًا.

وظاهر الأدلة التي أثبتت البعث صريحة في أن البعث يشمل الأجسام والأرواح، وعلى هذا اتفق سلف الأمة، وأئمتها.

قال القرطبي: "وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم" بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: "ومعاد الأبدان متفقٌ عليه عند المسلمين واليهود والنصارى".

ومدار ما تشبث به المخالفون للمعاد على ثلاث شبهات:

الأولى: أن الميت إذا مات تفتتت أجزاؤه، واختلطت بالتراب على وجه لا يمكن تمييزه وقالوا: أنت إذا تأملت وتدبرت، ظهر لك أن الغالب على ظاهر التربة المعمورة جثث الموتى المتربة، وقد حرق فيها وزرع، وتكون منها الأغذية، وتغذّى بالأغذية جثث أخرى، فأنى يمكن بعث مادة كانت حاملة لصورتي إنسانين في وقتين لهما جميعًا في وقت واحد، بلا قسمة.

الثاني: أن البعث لا علاقة له بالقدرة.

الثالث: أن البعث والحشـــر أمر لا فائدة منه، ولا تقتضـــيه الحكمة والحكمة بقاء النوع الإنساني وتجدده.

وهذا الضلال منشؤه القياس الفاسد، فقد قاسوا بعقولهم قدرة الرب -تبارك وتعالى-بقدرة البشر، فاعتقدوا استحالة ذلك، ولهذا نجد أن القرآن الكريم في تقريره لقضية البعث، يركز على ثلاثة أصول:

الأول: تقرير كمال العلم، قال تعالى: { وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ } [يونس: 61] وهذه الآية جاءت بعد الآيات التي فيها إثبات البعث.

الثاني: تقرير كمال القدرة كما في قوله تعالى: { أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ } [يس: 81، 82].

الثالث: تقرير كمال الحكمة قال تعالى: { فَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون: 115].

وقد تعرض شـيخ الإسـلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشـور من اليهود والنصـارى والصـابئة والفلاسـفة، ومنافقي هذه الأمة، فقال: الذين كفروا من اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، ويزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرُّون مع ذلك بحشرِ الأجسادِ مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرُّون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفار والمشـركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله -تعالى- في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، وردّ على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بيانًا تامًّا غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرّون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة؛ فإنهم يحرّفون الكلام عن مواضـعه، هذه أمثالٌ ضـربت لنفيهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة

الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبّب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب (رسائل إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان.

وذكر -رحمه الله تعالى- في موضع آخر: "أن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها، ويتألم بها".

العنصر الثالث: النفخ في الصور

والنفخ في الصور جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: ((لا تخيروا بين الأنبياء))، وثبت في الحديث في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا تخيروني بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

وجاء في الحديث الآخر: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله؟))، ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكونُ أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله؟)) فنشأ الإشكال في هذا الحديث، وسبب هذا الإشكال نا شئ من أنه دخل على الراوي حديثٌ في حديث، فركب بين اللفظين، بيان ذلك أن قوله في الحديث: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكونُ أول من يفيق، فإذا موسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

جاء بعض الرواة، فروى الحديث هكذا: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟))، وفي لفظ آخر: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفَاقَ قبلي أم كان ممن استثنى الله؟)).

ووجه الإشـــكال: أنه في أول الحديث قال: ((يصـــعقون يوم القيامة)) وهذا يدل على أن الناس قاموا من القبور، ووقفوا للحـ ساب، وفي آخر الحديث قال: ((فأكون أول من تنـ شق عنه الأرض)) يدل على بدء الخروج من القبور؛ حيث تنشـــق عنه ﷺ الأرض، و لم يقف الناس بعد للحـ ساب، فيفـ سد المعنى بذلك؛ لأن انـ شقاق الأرض قبل الموقف والـ صعق في الموقف، ومنشأ الإشكال الوهم من بعض الرواة بإدخال حديث في حديث.

وحل الإشكال رد الحديث إلى أصله، وهو أن صواب الحديث هكذا: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق))، وليس: "فأكون أول من تنـ شق عنه الأرض". وإنما وهم بعض الرواة، فأبدل قوله: ((فأكون أول من يفيق)) بقوله: ((فأكون أول من تنـ شق عنه الأرض))، وحلّ الإ شكال رد الحديث إلى أ صله. والـ صواب أن هذا وهم من الرواة، وأن هذه اللفظة صوابها: فأكون أول من يفيق. لا، فأكون أول من تنـ شق عنه الأرض، وكذلك أ شكل في الحديث رواية بعض الرواة، فإنه روى في آخر الحديث: ((لا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ؟)).

ووجه الإشكال: أنه في آخر الحديث، استثني من صعقة يوم القيامة؛ لأن أول الحديث: ((إن الناس يصـــعقون يوم القيامة)) أو هذا في موقف القيامة، ثم قال في آخره، ((فلا أدري أفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله؟))، فاستثني من صعقه يوم القيامة.

والذين ا ستثناهم الله إنما هم مـستثنون من صعقةِ النفخة، لا من صعقة يوم القيامة كما قال تعالى: { وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر: 68]، و لم يقع الا ستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة، فالـصعق الذي استثنى الله فيه في سورة "الزمر" و"النمل"، ذلك الصعق صعق تخريب العا لم، و سببه النفخ في الصور والفزع، والمستثنى قيل ملك الموت، وثلاثة ملائكة معه.

ومنـ شأ الإ شكال الوهم من بعض الرواة؛ حيث ا شتبه عليه أن هذه الـ صعقة هي صعقة النفخة، وأن مو سى داخل في من ا ستثنى الله، فأبدل قوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟))، بقوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ؟)).

وحلّ الإ شكال ردّ الحديث إلى أ صله –كما تقدم– فالمحفوظ الذي تواترت عليه الروايات

الصحيحة هو: ((فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور)) وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده، إذا جاء لفصل القضاء، وموسى ﷺ إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل، فجعله دكًّا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضًا عن صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، وأما قوله: ((فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ؟))، فلا يلتئم على مساق الحديث قطعًا، فإن الإفاقة حينئذٍ هي إفاقة البعث، وكيف يقول: ((لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)).

فتأمل، وممن نبه على هذا الحافظ أبو الحجاج المزي، والحافظ العلامة ابن القيم، والحافظ عماد الدين ابن كثير، نبهوا على هذا الوهم من الرواة، وأنه دخل على الرواة حديث في حديث.

والصعق نوعان:

الأول: صعق البعث، وسببه هو النفخ في الصور، ووقته يوم القيامة.

والثاني: صعق التجلي، وسببه تجلي الله للخلائق، ووقته في موقف يوم القيامة.

والنفخ في الصور، نفختان على الصحيح، وقال بعضهم: ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة الموت، والصواب: أن نفخة الفزع، ونفخة الصعق نفخة واحدة نفخة طويلة، يطولها إسرافيل أولها: فزع وآخرها موت، وأما الحديث الذي فيه إثبات ثلاث نفخات، فهو حديث ضعيف.

فأولها النفخة الأولى، نفخة الفزع أولًا، ويتغير بها هذا العالم، ويفسد نظامه، ويسير الله الجبال، وترتج الأرض بأهلها رجًّا، وتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج، وتميد الأرض بالناس على ظهرها، تذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتثور الشياطين هاربين من الفزع؛ حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة، وتضربها في وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين، فينادي بعضهم بعضًا؛ وذلك قول الله تعالى: { وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّـهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ فَمَا لَهُ

مِنْ هَادٍ } [غافر:32، 33] وتتصدع الأرض، وتكون السماء كالمهل، فيرى الناس أمرًا عظيمًا، وهي المشار إليها بقوله تعالى: { وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ } [ص: 15] أي: من رجوع ومردّ، وقوله: { وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ } [النمل: 87].

قيل: المستثنى ملك الموت، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: غير ذلك، وإنما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة، ثم يكون آخرها صعق وموت، وفيها هلاك كل شيء، كما قال الله تعالى: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ }[الزمر: 68]، وقد فُسِّر الصعق بالموت.

النفخة الثانية: نفخة البعث والنشور، وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تدل عليها كقوله تعالى: { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } وقوله سبحانه: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ }[يس: 51]، وقوله: { وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ } [ق: 41] قال المفسرون: المنادي إسرافيل ﷺ ينفخ في الصور، وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، و"المكان القريب": صخرة بيت المقدس، وبين النفختين أربعون.

العنصر الرابع: بيان ما ينال الخلق في المحشر من الأهوال

يوم القيامة يوم عظيم أمره، شديد هوله، لا يلاقي العباد مثله، ويدل على عظم هوله أمور:

الأول: وصفُ الله لذلك اليوم بالعظم، وحسبنا أن ربنا وصفه بذلك، ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل: { أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ } [المطففين: 4 – 6]، ووصفه في موضع آخر بالثقل، وفي موضع ثالث بالعسر: { إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا } [الإنسان: 27]، { فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ } [المدثر: 9، 10].

الثاني: الرعب والفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، فالمرضع التي تفدي وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم، والحامل تسقط حملها، والناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ } [الحج: 1، 2].

ولشدة الهول تشخص أبصار الظلمة في ذلك اليوم، فلا تطرف لشدة الرعب، ولا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا، ولشدة الخوف تصبح أفئدتهم خالية لا تعي شيئًا ولا تعقل شيئًا { وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ} [إبراهيم: 42، 43].

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم، فلا تخرج، ولا تستقر في مكانها { وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: 18]. ومعنى كاظمين أي: ساكتين لا يتكلمون. ووصف في موضع آخر ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال: { رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ} [النور: 37]، وقال: { قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ} [النازعات: 8، 9].

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يرتكب جرمًا يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من أهوال { فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا } [المزمل: 17، 18].

الثالث: انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة، كما قال تعالى: { فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ} [المؤمنون: 101]، فكل إنسان في ذلك اليوم يهتم بنفسه، ولا يلتفت إلى غيره، بل إن الإنسان يفر من أحب الناس إليه، يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبَنيه، كما قال تعالى: { فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: 33 – 37].

وقال في موضع آخر: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن

وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ} [لقمان: 33] وقال: { وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ} [البقرة: 48].

الرابع: استعداد الكفار في يوم الدين لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب، فلو كانوا يملكون ما في الأرض لافتدوا به { وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ} [يونس: 54]. بل لو كان للكافر ضعف ما في الأرض لافتدى به { لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ} [الرعد: 18]، بل هو على استعداد أن يبذل ما عنده ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وعلى احتمال أن كان الأمر كذلك، فإن الله لا يقبل منه { إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ} [آل عمران: 91].

وفي (صحيح البخاري) عن أنس بن مالك ﵁ أن نبي الله ﷺ كان يقول: ((يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك)).

ويصـــل الحال بالكافر في ذلك اليوم أن يتمنَّى لو دفع بأعز الناس عنده في النار لينجو هو من العذاب: { يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ} [المعارج: 11 – 15].

الخامس: ويدلك على هول ذلك اليوم وشدته: طوله، قال تعالى: { تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا } [المعارج: 4 – 7].

و سياق الآيات تدل دلالة وا ضحة على أن المراد به يوم القيامة، وقد ثبت بإ سناد صحيح عن ابن عباس أنه يوم القيامة، وبذلك قال الحـ سن، وال ضحاك، وابن زيد. ولطول ذلك اليوم يظن الناس في يوم المعاد أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ســـاعة من نهار، كما قال تعالى: { وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّـــهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ}

[يونس: 45].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة ويحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّـهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الأنعام: 128]. كقوله: { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا} [النازعات: 46]. وقال تعالى: { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا } [طه: 104]، وقال تعالى: { وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ} [الروم: 55]، وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: { قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: 112 - 114].

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها، والسماء ونجومها وشمسها وقمرها.

يحدثنا ربنا أن الأرض تزلزل وتدكُّ، وأن الجبال تُ َسيَّر وتن سف، والبحار تُفجّر وتُ سجَّر، والسماء تتشقق وتمور، والشمس تُكوَّر وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تنكدر ويذهب ضوءها، وينفرط عقدها.

الدرس الثالث عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (3)

عناصر الدرس

العنصر الأول: ذكر الأرض التي يقف عليها الناس ومدة وقوفهم

العنصر الثاني: الجمع بين قوله: { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } وبين حديث: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك))

العنصر الثالث: ذكر الحوض وما يتعلق به من مسائل

العنصر الرابع: مجيء الله –تعالى–لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله

العنصر الأول: ذكر الأرض التي يقف عليها الناس ومدة وقوفهم

هذه بعض المباحث المكملة للكلام على مسائل اليوم الآخر كأرض الموقف، والحساب، والحوض، ومجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء:

الأرض التي يُحشر العباد عليها يوم القيامة أرضٌ أخرى غير هذه الأرض، قال تعالى: { يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ } [إبراهيم: 48].

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي))، قال سهل وغيره: "ليس فيها علم لأحد".

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلًا. وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصةُ البياض. والنَقِيّ: بفتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال. والمعلم: العلامة التي يُهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالًّا على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

وقد جاءت نصوصٌ كثيرةٌ عن عدد من الصحابة تفيد معنى الحديث الذي سقناه هنا، ورواه صاحبا الصحيحين؛ فقد أخرج عبد بن حميد والطبري في تفسيريهما والبيهقي في (شعب الإيمان) من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ } [إبراهيم: 48]. قال: تبدل الأرض أرضًا كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة، ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوع. وقال: الموقوف أصح.

وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ: ((أرضٌ بيضاء، كأنها سبيكة فضة))، ورجاله موثقون أيضًا. وعند عبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض -يعني أرض الدنيا- تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها.

وفي حديث الصور الطويل: ((تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، فيبسطها ويسطحها، ويمدّها مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ثم يزجر الله الخلق زجرةً واحدة، فإذا هم في هذه الأرض المبدَّلة، في مثل مواضـــعِهِم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرِها كان على ظهرِهَا)).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يبدل من الأرض إنما هو صـــفاتها فحســـب، فمن ذلك حديث عبد الله بن عمرو الموقوف عليه، قال: ((إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مد الأديم، وحشـــر الخلائق)). ومن ذلك حديث جابر رفعه: ((تمدُّ الأرض مدّ الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضـــع قدميه)). ورجاله ثقات، إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه.

ومنها حديث ابن عباس في تفســـير قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ} قال: ((يزاد فيها، وينقص منها، و يذهب آكامها وجبالها، وأوديتها، وشـــجرها، و تمدّ مدّ الأديم العكاظي)).

الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسماوات: أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل، ففي (صحيح مسلم) عن عائشة قالت: ((سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ : {يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ} فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: على الصراط)).

وفي (صحيح مسلم) أيضًا عن ثوبان أن حبرًا من أحبار اليهود سأل الرسول ﷺ فقال: أين يكون الناس {يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ} فقال رســـول الله ﷺ: ((هم في الظلمة دون الجسر))، والمراد بالجسر الصراط.

العنصر الثاني: الجمع بين قوله: {ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ} وبين حديث: ((ليس أحد يحاسب إلا هلك))

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم يسيرًا، وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر؛ بسبب كثرة الذنوب وعظمها.

وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم فئةٌ قليلة لا يجاوزون السبعين ألفًا، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح والجهاد، وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها. وهذا معنى قوله -تبارك وتعالى: { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } [الانشقاق: 7، 8].

ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: ((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا }فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك)).

قال النووي في شرحه للحديث: معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: ((عُذِّب)) له معنيان:

أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب، والتوقيف عليها هو التعذيب لِمَا فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفضٍ إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: ((هلك)) مكان ((عذب)). هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يُسامَح هلك، ودخل النار، ولكن الله -تعالى- يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء.

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله: ((إنما ذلك العرض)) قال: إن الحساب المذكور في الآية، إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منَّةَ الله عليه في سترها عليه في

الدنيا، وفي عفوِهِ عنها في الآخرة. والمراد بالعرض -كما هو ظاهر من هذه الأحاديث- عرض ذنوب المؤمنين عليهم؛ كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانِهَا لهم.

العنصر الثالث: ذكر الحوض وما يتعلق به من مسائل

ذكر الحوض وصفته، وأدلة ثبوته، والعلاقة بينه وبين الكوثر، وموضع كلّ منهما:

تعريف الحوض لغةً: مجمع الماء، وجمعه حياض وأحواض. والمراد به في الشرع: هو ما جاء في الخبر به من أن لنبينا محمد ﷺ حوضًا ترد عليه أمته يوم القيامه، جعله الله غياثًا لهم، وإكرامًا لنبينا محمد ﷺ.

وقد ثبت الحوض بالنصوص الصحيحة الصريحة المتواترة، واعتقد بثبوته جميع سلف هذه الأمة، ولم ينكر إثباته إلا الخوارج وبعض المعتزلة. قال السفاريني: "والحوض والكوثر ثابت بالنص، وإجماع أهل السنة والجماعة حتى عده أهل السنة في العقائدِ الدينية لأجل الرد على أهل البدع والضلال". والكوثر في لغة العرب وصف يدل على المبالغة في الكثرة.

أما في الشرع فله معنيان:

المعنى الأول: أنه نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه ﷺ، وهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: { إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ } [الكوثر: 1] كما فسره النبي ﷺ بذلك كما روى مسلم في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: ((بينما نحن عند النبي ﷺ إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت علي سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {ذٓ ذٓ ذٓ} إلى آخرها، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربِّي عليه خيرٌ كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة)) الحديث.

وعند الترمذي عن ابن عمر { عن النبي ﷺ قال: ((الكوثرُ نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت)) الحديث. وقال الترمذي: إنه حسن صحيح. وصححه الألباني كما في (صحيح سنن الترمذي).

المعنى الثاني: أنه حوض عظيم، والحوض هو: مجمع الماء يوضع في أرض المحشر يوم القيامة، ترد عليه أمة محمد ﷺ وهذا الحوض يأتيه ماؤه من نهر الكوثر الذي في الجنة، ولذا يسمى حوض الكوثر والدليل على ذلك ما رواه مسلم في (صحيحه) من حديث أبي ذر: ((أن الحوض يشخب -يصب- فيه ميزابان من الجنة)).

وظاهر الحديث: أن الحوض بجانب الجنة؛ لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها، كما قال ذلك ابن حجر -رحمه الله- في (فتح الباري) والله أعلم.

وأما هل هو خاص بالنبي دون غيره من الأنبياء أم لا؟

فأما نهر الكوثر الذي يُصب من مائه في الحوض، فإنه لم يُنقل نظيره لغير النبي ﷺ وامتنَّ الله عليه به في السورة، فلا يبعد أنه خاص بنبينا ﷺ دون غيره من الأنبياء.

وأما حوض الكوثر: فقد اشتهر عند العلماء اختصاصُ نبينا ﷺ به، وممن صرح بذلك القرطبي في (المفهم) لكن أخرج الترمذي (2367) من حديث سمرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ لِكل نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم)). وهذا الحديث جميع أسانيده ضعيفة، لكن بعض العلماء حكم له بالقبول لكثرة أسانيده كما فعل الألباني في (الصحيحة) ومنهم من حكم عليه بالضعف، فإذا ثبت الحديث كان المختص بنبينا ﷺ النهر دون الحوض، وإن لم يثبت فلا يبعد أن يكون الحوض أيضًا خاصًّا به دون غيره -والله أعلم.

وقد ورد في السنة الصحيحة ذكر صفات النهر الذي في الجنة والحوض الذي في أرض المحشر فمن صفات نهر الكوثر الذي في الجنة: ما رواه البخاري في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((بينا أنا أسير في الجنة؛ إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، قال: فضرب الملك بيده، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر)).

وروى الإمام أحمد عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس م سقوفًا، ف ضربت بيدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ)). وصححه الألباني في (الصحيحة).

وفي رواية عند أحمد أيضًا في (المسند) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَوْثَرِ فقَالَ: ((ذاك نهر أعطانيه الله -يعني: في الجنة- أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر -الإبل- قال عمر: إِنَّ تِلْكَ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ. فقال ر سول الله ﷺ: أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَر)). وصححه الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب).

وأما صفات الحوض الذي في أرض المحشر فمنها: ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو { أنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا)).

وفي (صحيح م سلم) عن أَنَسٍ ﷺ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: ((تُرَى فِيهِ أَبَارِيقُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السماء))، وفي رواية: ((أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ))، وفيه أيضًا عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ: ((أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ؛ فَقَالَ: أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ يَغُتُّ -أي: يصب- فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالآخَرُ مِنْ وَرِقٍ)) أي: فضة.

وأحاديث الحوض لا شك في تواترها عند أهل العلم بأحاديث الر سول ﷺ فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمسين صحابيًّا، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أسماء رواة أحاديثه من الصحابة في (الفتح) حتى قال القرطبي في (المفهم شرح صحيح مسلم): مما يجب على كل مكلَّف أن يُعلمه ويُصدّق به أن الله ﷻ قد خص نبيه محمدًا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته، وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي.

وأما عن موقع الحوض في أرض المحشر: فقد اختلف العلماء في هذا، فمنهم من قال: إنه يكون بعد الصراط. ومنهم من قال: إنه يكون قبل الصراط، وهو قول الأكثر، وهو الأرجح -والله أعلم- لأنه يُؤخذ بعض من يرد عليه إلى النار، فلو كان موقعه بعد الصراط لما استطاعوا الوصول إليه؛ لأنهم يكونون قد سقطوا في النار والعياذ بالله.

وفي ختام هذا المبحث لا بد من التنبيه على أمر في غاية الأهمية والخطورة وهو: أنه ليس كل من انتمى للأمة المحمدية سينال نعمة وشرف الشرب من حوض النبي ﷺ ويده الشريفة، بل

قد صـــرَّحت الأحاديث أن هناك من رجال هذه الأمة من يُذاد، ويدفع عن الحوض دفعًا شديدًا، نسأل الله العافية.

فَمَن هؤلاء الذين سيشربون، ومن أولئك الذين سيدفعون؟ لقد أجاب الرسول ﷺ على هذا السؤال إجابة واضحة شافية حتى لا يبقى لمعتذر عذر، ولا لمتقاعس حجة فقد روى مسلم في (صحيحه) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى المقبرة فَقَالَ: ((السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَال: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُـــولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا)). والغرّة: بياض في وجه الفرس. والتحجيل: بياض في قوائمه. ودُهْم بُهْم أي: أسود شديد خالص لا يخالطه لون آخر.

وفي البخاري ومسلم عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((أَنَا فَرَطُكُمْ -أي: سابقكم- عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ)). قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَ النُّعْمَانُ بنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا يَقُولُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ، فَيَقُول -أي: النبي ﷺ: ((إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي)).

وعند البخاري في (صحيحه) ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ)).

قال القرطبي -رحمه الله: قال علماؤنا -رحمهم الله أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضـــاه الله، ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها،

والروافض على تباين ضلالِها، والمعتزلة على أ صناف أهوائِهَا، ومن نحا نحوهم، أو سلك طريقهم، وكذلك الظلمة الم سرفون في الجور والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالِهِم، والمعلنون بالكبائر المســـتخفون بالمعاصـــي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. انتهى من (التذكرة).

فعلى العبد أن يجتهد في متابعة النبي ﷺ وعدم مخالفته في أي شـــيء من هديه؛ رجاء أن يمنّ الله عليه بالشرب من هذا الحوض المبارك، وإلا فأيُّ خزي وندامة أشدّ من خزي وندامة من يدفع من بين يدي النبي ﷺ، وقد بلغ به العطش مبلغًا لا يُطاق، ولا يحتمل؛ فيمنع من الـ شرب من ذاك الماء البارد الطيب، ثم يزاد عليه العذاب والخزي، والحـ سرة بدعاء النبي ﷺ بالسحق والبعد –والعياذ بالله– فتصَوّر هذا عذاب، فكيف بمعاينته والتعرض له؟! نسأل الله العفو والعافية.

العنصر الرابع: مجيء الله –تعالى–لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله

قال الله تعالى: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ } [البقرة: 210] وقال تعالى: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ } [الأنعام: 158] وقال سبحانه: { كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر: 21، 22]، وقال: { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا } [الفرقان: 25]

والمجيء والإتيان معناهما متقارب: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ } أي: هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة، وهذا اليوم يأتيهم الله فيه يوم عصيب عليهم ماذا تكون حالهم إذا لقوا الله، وقد كفروا به وبرسله، وأشركوا به، وأعرضوا عن هداه؟! إنه لموقف موقف ذلٍّ وهوان، وحسرة إذا جاء ﷻ وهذه حاله. { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ } والملائكة يأتون كما في آيات الفجر: {وَجَآءَ رَبُّكَ

وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا }، تأتي الملائكة وهكذا قوله ﷻ: {{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ } كل هذا سيأتي.

وستأتي الملائكة كما في قوله تعالى: { يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا } [الفرقان: 22] إلى أن قال تعالى: { وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا } [الفرقان: 25]، والقرآن متشابه يُصَدِّق بعضه بعضًا، ففي الآية الأولى قال: { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ }هناك ظلل من الغمام، السحاب الذي الله أعلم بمداه وبمقدار وبصفته، أمور غيبية لا تحيط بها عقول العباد، ويوم تشقَّق السماء بالغمام، وتأتي منها الظلل –ظلل الغمام– وَننزِّل الْمَلائِكَة تَنْزِيلًا.

الملائكة تنزل بأمر الله وتفعل ما تُؤمَر به مما يشاء ﷻ فالملائكة في الدنيا وفي الآخرة هم رسل الله، يوكَّلُون بما يشاء سبحانه ملائكة موكلون بالوحي، بالقَطْر، بقبض الأرواح، بالجبالِ بما يشاء ﷻ يوم القيامة أيضًا يأتون ويفعلون ما يؤمرون: {لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } وذلك يوم القيامة { أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ } وجاء في تفسير هذا البعض في هذه الآية: أنه طلوع الشمس مِن مغربها، كما جاء في الصحيح أنه: ((إذا طلعت الشمس من مغربِهَا آمن مَنْ على وجه الأرض، ولكن لا ينفع نَفْسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانِها خيرًا)).

وأهل السنة والجماعة يثبتون ذلك ويؤمنون به، ويعلمون أنه تعالى سيأتي للفصل بين عباده والحكم بينهم ليجزي العاملين بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر في ذلك اليوم الذي هو يوم الدين.

الدرس الرابع عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (4)

عاصر الدرس

العنصر الأول: الميزان وما يتعلق به، وما جاء في جزاء الأعمال من الثواب والعقاب

العنصر الثاني: الصراط وصفته، ومعنى الورود في قوله تعالى: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }

العنصر الأول: الميزان وما يتعلق به، وما جاء في جزاء الأعمال من الثواب والعقاب

إتمامًا للمباحث المتعلقة باليوم الآخر، نتكلم عن أمرين مهمين تتعلق بهما أيضًا شبهات بعض المخالفين، وأنكروا وجوده، ألا وهما الميزان والصراط:

أما الميزان، فإنه يجب الإيمان به كأخذ الصحف، وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، والأدلة على إثبات الميزان، وبيان أوصافه كثيرة كقول الله تعالى: { وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: 8] وقوله تعالى: { وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ } [الأنبياء: 47] وقوله: { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ } [المؤمنون: 102، 103]، وقوله: { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ } [القارعة: 6 – 9].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص { قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا، كل سجل مدّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: أحضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظْلَم، قال: فتوضع السجلات في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء باسم الله الرحمن الرحيم)). أخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه وأبو القاسم ابن حمزة في جزء البطاقة، والحاكم في (المستدرك) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والألباني في (الصحيحة).

قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية): "فثبت وزن الأعمال والعامل و صحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات، فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، فيا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط

ليوم القيامة كما أخبر الشارع؛ لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا ...".

واختلف العلماء هل في يوم القيامة ميزان واحد، أو موازين متعددة؟

والأشـــهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم، ولجميع الأعمال، كِفتاه كأطباق الســـماوات والأرض، وقيل: إنه لكلِّ أمةٍ ميزان، وقال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان، ومن قال: إنه ميزانٌ واحد أجاب عن الآيات بأن المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة.

وأهل السنة يؤمنون بأن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن بهما صحائف الأعمال، وهو ميزان حسي، وذهب بعض المبتدعة كالمعتزلة وبعض الملحدين إلى أن الميزان أمر معنوي، قالوا: والمراد به العدل.

شـــبهتهم: قال المعتزلة: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، ومثلها يوزن بميزان معنوي، هو العدل، وإنما يقبل الوزن الأجسام، قالوا: والله لا يحتاج إلى الميزان، ولا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، أما الله فلا يحتاج إلى الميزان، هكذا المعتزلة حرفوا النصوص بأهوائهم.

وردّ عليهم أهل السنة بأن الله يقلب الأعراض أجسامًا، كما في حديث البراء بن عازب، أن العمل يمثل في القبر لصاحبه إنسانًا حسنًا، أو قبيحًا، مع أن العمل معنوي، وكما في حديث أبي هريرة: ((يؤتى بالموت كبشـــًا أغر، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون، وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون، وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح الموت كالكبش)) وهو معنوي، فكذلك الميزان، كذلك الله -تبارك وتعالى- يقلب الأعمال أجسامًا، فتوزن، ويوزن الشخص، قال ﷺ: ((يؤتى بالرجل العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة)) وقال النبي ﷺ: ((في دقتي ساقي ابن مسعود، إنهما في الميزان أثقل يوم القيامة من جبل أحد))، ومنشأ ضلال هؤلاء المعتزلة وغيرهم قياس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، والذي دلَّت عليه الســـنة أن ميزان الأعمال حسي له كفتان حسيتان مشاهدتان.

ومن ذلك حديث البطاقة: أنه يؤتى برجل، ويُخْرَجُ له تسعة وتسعون سجلًّا، كل سجل مد البصر سيئات، ثم يؤخذ له بطاقة فيها الشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كِفة، فطاشت السجلات من كثرة البطاقة، فنجا وسلم، وغفر الله له.

والترتيب في الميزان، والحوض، والصراط، والحساب، الصواب أن مراتب البعث والمعاد والصراط، أنها أولًا المعاد، والبعث، والنشور، ثم القيام لرب العالمين، ثم الحوض، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم الميزان، ثم الورود على الصراط، ثم الجنة.

الميزان عند أهل الحق ميزان حسي له كفتان عظيمتان، والأدلة على إثبات الميزان منها قول الله تعالى: { وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: 8].

وقوله: { وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ } [الأنبياء: 47]، وقوله: { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ } [الأعراف: 102، 103]، وقوله: { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ } [القارعة: 6 – 8].

واختلف العلماء هل في موقف القيامة ميزان واحد أم موازين متعددة؟ فالأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم، ولجميع الأعمال كفَّتاه كأطباق السماوات والأرض، وقيل: إنه لكل أمة ميزان. كما سبق ذكر ذلك فيما تقدم.

ومن الأدلة أيضًا على أن الميزان حسّيّ ما رواه الترمذي في سياق آخر: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة)) الحديث، وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي أن العامل يوزن مع عمله، وهو دليل على أن الميزان له كفتان حسيتان.

ومن الأدلة أيضًا: ما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناحَ بعوضة، قال: اقرءوا إن شئتم {

وقد وردت الأحاديث -أيضًا- بوزن الأعمال أنفسها، منها حديث أبي مالك الأشعري في (صحيح مسلم): ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان))، ومنها في (الصحيح)، وهو خاتمة كتاب البخاري: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمدِهِ، سبحان الله العظيم)).

فهذه الأدلة السابقة تدل على وزن الأشخاص والأعمال وصحائف الأعمال بميزان حسي، له كفتان حسيتان، فثبت وزن الأعمال والعامل وصحف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان.

الحكمة في وزن الأعمال بالميزان الحسّي: قال الثعلبي: الحكمة في ذلك تعريف الله عباده ما لهم عنده من الجزاء، من خير، أو شر، وقيل: بل الحكمة في وزن الأعمال ظهور عدل الله -سبحانه- في جميعِ عبادِهِ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسلَ مبشرين، ومنذرين. ومن الحكمة أيضًا بيان فضل الله، وأنه يزن مثاقيلَ الذر من خير، أو شر، قال تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: 40]، وفيه إدخال البشر والسرور على المؤمنين، ووراء ذلك أيضًا من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه.

حصول الثواب والعقاب في الآخرة، سواء أكان الثواب والعقاب حسيًّا أم معنويًّا، من الأمور التي قررتها الشريعة، بل أمر قررته شرائع السماء، وأقرته شرائع الأرض، وقامت عليه حياة الناس في الأولى والآخرة، وهو من الأمور المعلومة بالضرورة، ولا ينكره إلا جاحد معاند؛ قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ } [النحل: 97]. وقد تنوعت دلالات الكتاب والسنة على هذا الأمر العظيم، وما الميزان والعرض والحشر وغيره إلا هو لازم من لوازمه.

الترتيب في الحساب والميزان أيهما يكون قبل الآخر مع التوجيه:

قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ وذلك لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها.

الترتيب في الميزان والحوض والصراط: اعلم: أن مراتب المعاد والبعث والصراط والحساب، والحوض والميزان ما يلي: معاد وبعث ونشور، ثم القيام لرب العالمين، ثم الحوض، ثم العرض، ثم تطايرُ الصحف، وأخذها باليمين والشمال، ثم الميزَان، ثم المرورُ على الصراط، ثم الوقوف على القنطرة بين الجنة والنار، وجعل القرطبي في (التذكرة) هذه القنطرة صراطًا.

ثانيًا: للمؤمنين خاصـــة، ولا يســـقط فيه أحد في النار، فيكون الترتيب هكذا: بعث، فقيام، فحوض، فحساب، فصحف، فميزان، فصراط، فقنطرة، فالجنة.

العنصر الثاني: الصراط وصفته، ومعنى الورود في قوله تعالى: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }

وأما الصراط فهو لغة: الطريق الواضح. وشرعًا: جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، والأدلة على إثباته كثيرة، منها قوله تعالى: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا } [مريم: 71]، وفي الحديث الذي رواه البيهقي، عن مسروق، عن عبد الله بن عباس قال: ((يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: ويمرون على الصـــراط، والصـــراط كحدّ السيف دحض، مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم)). وجاء في الحديث عن عائشة ((في جهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك)).

قال العلماء في وصف الصراط: إنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وأحرّ من الجمر جاء هذا في أحاديث.

وقد أنكر بعض الطوائف الصراط، وهم المعتزلة، وقالوا: ليس هناك صراط حسي، وقالوا: إن الصراط إنما هو المراد منه الصراط المعنوي، فأهل الحق يثبتون الصراط على ظاهره، من كونه جسرًا ممدودًا على متن جهنم، أحدّ من السيف وأنكر بعض المعتزلة كالقاضي عبد

الجبار المعتزلي، وكثير من أصحابه، ومن أتباعه. قالوا: ليس هناك صراط حسي، قال: والمراد بالصراط طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: { سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } [محمد: 5]، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: { إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [الصافات: 23].

شبهتهم: قالوا: إنهم أنكروا الصراط الحسي؛ زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين يوم القيامة.

والرد: أن هذا تأويل باطل بوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشـــي على الماء، والطيران في الهواء، والوقوف فيه، وقد أجاب النبي ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه، بأن القدرة صالحة لذلك.

والمراد بالورود في قوله: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } في أصح قولي العلماء: المرور على الصراط، وقال بعضهم: دخول جهنم، والصواب: أن المراد به المرور على الصراط؛ لأن الله -تعالى- قال: { ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } [مريم: 72]، وفي الصحيح: أنه ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }؟ فقال: ألم تسمعيه قال: { ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا })).

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشرّ لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: { وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود: 59] { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ } [هود: 66] و { وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ } [هود: 94]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصـــراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيًّا. فقد بَيَّنَ ﷺ في حديث جابر المذكور: أن المراد هو الورود على الصراط.

والأدلة على إثبات الصراط كثيرة:

منها: ما رواه البيهقي بسنده، عن مسروق، عن عبد الله بن عباس { قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض، ومزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم".

ثانيًا: ما أخرجه الإمام أحمد عن عائشة > قالت: قال رسول الله ﷺ: ((في جهنم جسر أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك ...)) الحديث.

ثالثًا: أخرج البيهقي عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الصراط كحد السيف ...)) الحديث. وفي بعض الآثار: أن طول الصراط مسيرة ثلاث آلاف سنة، والله أعلم، قال: ألف منها صعود، وألف منها هبوط، وألفٌ منها استواء -والله أعلم بالصواب.

وصف الصراط: قال العلماء: الصراط أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف، وأحَرُّ من الجمر، فقد أخرج الطبراني بإسناد حسن، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ((يوضع الصراط على سواء جهنم، مثل حد السيف المرهف مدحضة، مزلة -أي: لا تثبت عليه قدم، بل تزل عنه إلا من يثبته الله- عليه كلاليب من نار تخطف أهلها، فتمسك بهواديبها، ويستبقون عليه بأعمالِهم؛ فمنهم من شدّه كالبرق، وذلك الذي لا ينشب أن ينجو، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس)).

ومن الأحاديث الواردة في ذلك: ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: "يجمع اللهُ الناسَ يوم القيامة ... إلى أن قال: فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يُعْطَى نوره على قدر الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرةً ويطفئ أخرى؛ حتى إذا أضاء قدَّمَ قدمَه، وإذا طفئ قام، قال: فيمرون على الصراط كحد السيف دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر ذُنوبِكُم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرحل، ويرمل رملًا، فيمرون على قدر أعمالهم؛ حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رِجْل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار. قال: فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا.

قال مسروق: فما بلغ عبد الله إلى هذا المكان من هذا الحديث إلا ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لقد حدثت هذا الحديث مرارًا، كلما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت؟ فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يحدّثه مرارًا فما بلغ هذا المكان من هذا الحديث إلا ضحك حتى تبدو لهواته، ويبدو آخر ضرس من أضراسه؛ لقول الإنسان: ((أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟ فيقول: لا، ولكني على ذلك قادر فسلوني)). أخرجه الحاكم في (المستدرك) موقوفًا، وأخرجه أيضًا مرفوعًا والطبراني في (الكبير)، والدارقطني في (الرؤية)، وابن نصر في (تعظيم قدر الصلاة)، وصححه الألباني في (التعليق على شرح الطحاوية)؛ لوروده من طرق أخرى عند الطبراني في (الكبير) وابن أبي الدنيا في (صفة الجنة)، والذهبي في (العلو). وصححه من هذا الوجه المنذري في (الترغيب).

الطائفة المنكرة للصراط، وشبهتها وتأويلهم للصراط والرد عليهم: أهل الحق يثبتون الصراط على ظاهره، بكونه جسرًا حسيًّا ممدودًا على متن جهنم، أحدّ من السيف، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه، وأولوا الصراط فقالوا: المراد بالصراط طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: { سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ } وطريق النار المشار إليها بقوله: { فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ }.

شبهتهم: أنكروا الصراط الحسّي، زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن، ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين يوم القيامة -كما تقدم.

الرد عليهم: تأويلهم هذا باطل بوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراطِ بأعجب من المشي على الماء، والطيران في الهواء والوقوف فيه، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه، بأن القدرة صالحة لذلك -كما تقدم.

قال القرطبي: هل هناك صراط آخر؟ اعلم رحمك الله -تعالى- أن في الآخرة صراطين:

أحدهما: مجاز لأهل الحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، يجيزون عليه إلا من دخل الجنة بغير حساب، وإلا من يلتقطه عنق من النار، فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر المذكور، ولا يخلص منه إلا المؤمنون، الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، حبسوا على صراط آخر، خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد، إن شاء الله -تعالى- لأنهم قد

عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم، التي يسقط منها من أوبقته ذنوبه.

ويدل على هذا الصراط الثاني ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذه الآية: { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر: 47] قال: ((يخلص المؤمنون من النار، فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا؛ حتى إذا هذبوا، ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا)).

قال القرطبي: هذا في حق من لم يدخل النار من عصاة الموحدين، أما من دخلها، ثم أخرج، فإنهم لا يحبسون، بل إذا أخرجوا بقوا على أنهار الجنة.

المراد بالورود في قول الله تعالى: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا }: اختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في هذه الآية على قولين: فقيل: المراد به الدخول في النار، وهذا قال به ابن عباس وجماعة، واستدلوا بقوله تعالى: { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا } بعد قوله: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } فالتعبير بالإنجاء بعد الورود دليل على أنهم دخلوا، لكنهم نجوا.

وأجيب بأن التعبير بالإنجاء، لا يستلزم إحاطة العذاب بالشخص، بل يكفي في ذلك انعقادُ أسبابه، ولو لم يهلك، كما في قوله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا } وقوله: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا }، وقوله: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا } ولم يكن العذاب أصابه، ولكن أصاب غيره، كما تقدم ذكره.

الدليل الثاني: استدلوا باللغة قالوا: الورود في اللغة يستلزم الدخول.

والجواب: يرد بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: ((والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: { وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }، قال: ألم تسمعيه قال: { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا })) أشار ﷺ إلى أن ورودَ النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من النار لا تستلزم حصوله، بل تستلزم العقاب الشديد.

الدليل الثالث: استدلوا بقوله تعالى: { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ }

[الأنبياء: 98] وقوله تعالى: { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ } [هود: 98] وقوله: { وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا } [مريم: 86] فسمى دخول النار ورودًا.

وأجيب بأن هذه الآيات في الكفار، ويستلزم الورود إحاطة العذاب بهم.

الدرس الخامس عشر: مباحث متعلقة باليوم الآخر (5)

عناصر الدرس

العنصر الأول: مسائل متعلقة بالشفاعة

العنصر الثاني: الأدلة على وجود الجنة والنار، ودوامهما، والرد على المخالفين

العنصر الأول: مسائل متعلقة بالشفاعة

إتمامًا لمباحث اليوم الآخر، نختم ذلك بالكلام على الشفاعة، وبيان أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما أبديتان لا تفنيان، وذلك من خلال ما يلي:

أولا: الشفاعة وأدلة ثبوتها، وأقسامها، وشروطها، ولمن تكون، ومن الشفعاء:

الشفاعة لغة: الوسيلة والطلب، وعرفًا: سؤال الخير للغير، وقيل: هي من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له.

والشفاعة حق إذا تحققت شروطها؛ وهي: أن تكون بإذن الله -تعالى- ورضاه عن المشفوع له، قال الله تعالى: {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّـهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ} [النجم: 26] ففي هذه الآية الكريمة أن الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافعِ أن يشفع؛ لأن الشفاعةَ ملكه سبحانه {أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّـهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ} [الزمر: 43].

الثاني: رضاهُ عن المشفوع فيه بأن يكون من أهلِ التوحيد؛ لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة؛ كما قال تعالى: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ} [المدثر: 48]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب "الإيمان" من (الفتاوى) عند هذه الآية: "فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من مُلْكٍ، أو يكون عونًا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: {ٱللَّـهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ} [البقرة: 255] وقال تعالى عن الملائكة: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: 28].

فتبين بهذا بطلان ما عليه القبوريون اليوم الذين يطلبون الشفاعة من الأموات ويتقربون إليهم بأنواع القربات، كما قال الله في سلفهم: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّـهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّـهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ}. [يونس: 18]، وقال تعالى: { أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّـهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّـهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزمر: 43، 44] وقد أعطي نبينا محمد ﷺ الشفاعة، فيشفع لمن أذن الله له فيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: وله ﷺ ثلاث شفاعات:

أما الـ شفاعة الأولى؛ فيـ شفع في أهل الموقف حتى يُقْ ضَى بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى ابن مريم حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة. وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحقَّ النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها.

وقال –رحمه الله: "وأما شـــفاعته ﷺ لأهل الذنوب من أمته؛ فمتفقٌ عليها بين الصـــحابة والتابعين لهم بإحسان، و سائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار؛ لا يخرج منها لا بـ شفاعة ولا غيرها! وعند هؤلاء ما ثَمَّ إلا من يدخل الجنة، فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب ...".

إلى أن قال: واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: { وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ }، وبقوله: { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ }، وبقوله: { مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ }، وبقوله: { فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ }.

وجواب أهل السنة: أن هذا يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين؛ كما قال تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ} [المدثر: 42 – 48] فهؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم كانوا كفَّارًا.

والثاني: أنه يراد بذلك الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنِهِ، كما يشفعُ الناسُ في بعضهم عند بعض.

وإتمامًا للفائدة لا بد من سرد أنواع الشفاعة جملةً كاملة، وذلك كما أحصاها ابن أبي العز في (شرح الطحاوية):

الأولى: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وهي التي يتأخَّر عنها أولو العزم حتى تنتهي إلى رسول الله محمد ﷺ.

الثانية: شفاعة رسول الله ﷺ لأهل الجنة في دخولها بعد الفراغ من الحساب.

الثالثة: الشفاعة لرفع درجات بعض من يدخل الجنة. وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث بها.

الرابعة: الشفاعة فيمن استحق النارَ من بعض الموحدين أن لا يدخلها.

الخامسة: الشفاعة لمن دخل النار من بعض الموحدين أن يخرج منها.

السادسة: الشفاعة في أقوام قد تساوت حسناتهم، وسيئاتهم فيشفعون فيهم ليدخلوا الجنة.

السابعة: الشفاعة في أقوامٍ أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

الثامنة: الشفاعة في تخفيفِ العذابِ عمن يستحقه، وهي شفاعة رسول الله ﷺ في عمِّه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.

العنصر الثاني: الأدلة على وجود الجنة والنار، ودوامهما، والرد على المخالفين

الذي تضافرت عليه نصوص الكتاب والسنة، واتفق عليه أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وما زالوا على هذا حتى نبغت نابغة من الخوارج والمعتزلة والقدرية فأنكروا ذلك، وخالفوا إجماع الأمة.

والجنة والنار هما داران للجزاءِ على الأعمال، والإيمان بهما داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر،

الإيمان بالجنة والنار لا بد منه لكل مسلم.

والإيمان بأن الجنة والنار موجودتان ومخلوقتان الآن، وفيه مذهبان للناس:

المذهب الأول: الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان ومخلوقتان الآن ولا تفنيان أبدًا، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب الصحابة والتابعين.

المذهب الثاني: أنهما معدومتان الآن، وإنما تخلقان يوم القيامة، وهذا مذهب أهل البدع من المعتزلة والقدرية وغيرهم، كما سبقت الإشارة إليه، يقولون: إنهما الآن معدومتان، وإنما تخلقان يوم القيامة، والصواب ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي عليه الصحابة والتابعون؛ اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وتابعوهم، وأهل السنة، وفقهاء الإسلام، وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته؛ خلافًا لأهل البدع القائلين بأنهما معدومتان الآن، وإنما تخلقان يوم القيامة.

استدل أهل الحق على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن بأنواعٍ من الأدلة، وإذا قلنا: بأنواعٍ من الأدلة، فالمعنى أن كل نوع تحته أفراد من الأدلة، وليس المرادُ حصر الأفراد، وإنما المراد حصر النوع.

النوع الأول من الأدلة: التعبير بصيغة الماضي في الجنة والنار، والتعبير بالماضي يدل على حصول الشيء ووجوده، ومن أمثلة ذلك قوله -تعالى- عن الجنة: {وَسَارِعُو إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133]، وقوله عن النار: {إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ} [البقرة: 24].

قال ابن عادل في (اللباب في علوم الكتاب) -عند تفسير بداية "البقرة": هذه الآيات صريحة في أن الجنة والنار مخلوقتان؛ لأنه تعالى قال في صفة النار: {أعدت للكافرين} وقال في وصف الجنة في آية أخرى: {وَسَارِعُو إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133]، وقال: {وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ } [البقرة: 25]. وهذا إخبارٌ عن وقوعِ هَذَا الملك وحصوله، وحصول الملك في الحال يقتضي حصول المملوكِ في الحَالِ.

ومن الأدلة أيضًا قوله عن النار: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} [النبأ: 21]، وقوله تعالى عن الجنة: {سَابِقُو إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّـهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّـهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} [الحديد: 21] فقوله: {أُعِدَت} بصيغة الماضي، تدل على أنها موجودةٌ، ومخلوقةٌ الآن.

النوع الثاني من الأدلة: رؤية النبي ﷺ للجنة والنار في السماء يوم المعراج، والرؤية لا تكون إلا لشيء موجود قال تعالى: {وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ} [النجم: 13 - 15] ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره: ((ثم انطلق بي جبريل؛ حتى أتي سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)) و"الجنابذ"، يعني: قباب اللؤلؤ، جمع قُبة فقوله: ((ثم دخلت الجنة)) هذا دليل على أن الجنة مخلوقة الآن؛ خلافًا لأهل البدع القائلين بأنها لا تخلق إلا يوم القيامة.

النوع الثالث من الأدلة: أدلة عذاب القبر ونعيمه، وأن الروح تدخل الجنة قبل يوم القيامة، وكذلك روح الكافر تدخل النار قبل يوم القيامة، من أمثلة ذلك ما في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عمر { أن رسول ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُهُ بالغداةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))، ومن أمثلة ذلك أيضًا: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل المشهور، وفيه: ((ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها)).

ومن أمثلة ذلك أيضًا حديث أنس، وفيه فيقول له: ((انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال: فيراهما جميعًا))، ومن أمثلة ذلك، الحديث الصحيح المشهور: ((إنما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يعلق في شجرِ الجنةِ؛ حتى يرجعه الله إلى جسدِه يومَ يبعثه)) هذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

النوع الرابع من الأدلة: رؤية النبي ﷺ للجنة والنار يوم الكسوف، وهو على المنبر، كما في

حديث عائشة < قالت: خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فذكرت الحديث وفيه: ((وقال رسول الله ﷺ: رأيت في مقامي هذا كل شيء وُعِدْتُم به؛ حتى لقد رأيتني آخذُ قطفًا من الجنة، حين رأيتموني تقدَّمت)).

النوع الخامس من الأدلة: إرسال جبريل ﷺ بعد خلق الجنة والنار للنظر إليهما، فشاهدهما، وما حفَّ بكل منهما، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب، فانظر إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ...)) وقال في النار مثل ذلك.

هذه خمسة أنواع من الأدلة، كلها تدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وتحت كل نوع أفراد من الأدلة.

أما المنكرون لخلقهما الآن، وهم المعتزلة والقدرية، فإنهم يقولون: إن الله ينشئهما، ويخلقهما يوم القيامة، وأنكروا وجودهما الآن.

حجتهم في ذلك: هذا المذهب مبنيٌّ على أصلهم الفاسد، الذي حملهم على الإنكار، وأصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً للرب فيما يفعله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعلَ كذا، وهو الحسن والقبح العقليان، وقياس الله على خلقه في أفعاله، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة، التي وضعوها لله، وهي مسألة الحسن والقبح العقليين، وصرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا، وجادلوا من خالف شريعتهم، فقالوا – هذه شبهتهم العقلية– قالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة، والعبث محال على الله.

هذه حجتهم: العقل، قالوا: خلق الجنة والنار الآن قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا طويلة، ما فيها أحد، والعبث محال على الله. بتعبير آخر قالوا: وجودهما اليوم، ولا جزاء نوع من العبث، والعبث محال على الله.

الرد عليهم:

أولًا: بإبطال أ صلهم الفا سد: الذي و ضعوا به شريعةً للرب، وهو تحكيم عقولهم قبحًا وحسنًا، وقياس اللهِ على خلقه.

ويقال ثانيًا: من قال: إنهما معطلتان؟! ليستا معطلتين، بل هما مشغولتان؛ فإن الروح تنعم في الجنة، أو تعذب في النار، قبل يوم القيامة، كحديث: ((إنما مثل روح المؤمن كطائر يعلق في شجر الجنة؛ حتى يُرجعه الله إلى جسده يوم القيامة)) فهذا صريح في دخول الروح الجنة، قبل يوم القيامة، وحديث البراء بن عازب في قصـــة العبد المؤمن والكافر، وأنه يفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، أو يفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها.

ويقال ثالثًا في الرد عليهم: أن الاتِّعَاظ، والتذكر فيهما إذا كانتا موجودتين الآن أشد، وأبلغ منه فيما إذا قيل: إن الله ينشئهما يوم القيامة، فإن الإنسان إذا علم بوجود الجنة اجتهد في تحصـــيلها، وإذا علم بوجود النار اجتهد في الهرب والبعد منها، أكثر مما لو كانت غير موجودة.

ومن شبههم الشرعية: استدلوا بقول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ} [ال عمران: 185] وقوله سبحانه: {وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّـهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88] ووجه الاستدلال من الآيتين: أن كلًّا من هاتين الآيتين، تدل على أن المخلوقات صائرة إلى الفناء، ولو كانت الجنة والنار مخلوقتان الآن، لوجب اضطرارًا أن تفنيا يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيهما، ويموت فيموت الحور العين التي في الجنة والولدان، وقد أخبر الله –سبحانه– أن الدار دارُ خلود، ومن فيها مخلدون لا يموتون، فدل على أنهما تخلقان يوم القيامة، هذا دليلهم.

أجيب عن الآيتين بأجوبةٍ؛ منها: أن المراد بقوله تعالى: { كُلُّ شَـــىْءٍ هَالِكٌ } مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، وأما الجنة والنار، فخلقتا للبقاء لا للفناء، فلا يلزم من وجودهِمَا الآن

الفناءُ يوم القيامة، وكذلك العرش لا يفنَى، فإنه سقف الجنة، وقيل: المراد كل شيء هالك إلا ملكه، وقيل: المراد إلا ما أريد به وجهه، وقيل: إن الآية وردت للرّد على الملائكة، وذلك أن الله -تعالى- أنزل كل من عليها، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر الله -تعالى- عن أهل الـ سماء والأرض، أنهم يموتون فقال: { كُلُّ شَـيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } لأنه حيٌّ لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، والذي حمل أهل الـ سنة على تأويل هاتين الآيتين، إنما فعلوا ذلك توفيقًا بينهما وبين النصـــوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضًا.

الشبهة الثانية للمعتزلة: في أن الجنة والنار ليستا موجودتين الآن، استدلوا بحديث ابن مسعود ﵁ قال: قال رســـول الله ﷺ: ((لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أســـري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني الـ سلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، وعذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرا سها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر))، ومثله حديث جابر ﵁ عنه مرفوعًا: ((من قال سبحان الله وبحمده غُرست له نخلة في الجنة)).

ووجه الا ستدلال: أن القيعان لـ شيء غير موجود، ولو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، و لم يكن لهذا الغراس معنى، ولقال: طيبة الثمرة، و لم يقل: طيبة التربة. هذا دليلهم.

وأجيب بأن قوله: طيبة التربة وعذبة الماء وقيعان دليل على وجودها، فتربتها موجودة، والحادث إنما هو غرسها فقط، فالحديث صحيح صريح في أن أرض الجنة مخلوقة، وأن الذكر ينشئ الله -سبحانه- لقائله منه غراسًا في تلك الأرض.

ومن شبههم: قول الله -تعالى- عن امرأة فرعون أنها قالت: {وَضَرَبَ ٱللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ} [التحريم: 11] ووجه الدلالة: أنها قالت "ابن لي بيتًا" و لم تقل: بيتًا مبنيًّا، فدل على أنها لم تخلق؛ إذ من المحال أن يقول قائل لمن نسج له ثوبًا، انسج لي ثوبًا.

وأجيب: بأن غاية ما تدل عليه الآية، أنه لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنه لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، ولا تدل على أنها الآن معدومة، بل إن أرضها مخلوقة وبناء الغروس فيها بالأعمال المذكورة، والعبد كلما و سع في أعمال البر، و ّسعَ الله له في

الجنة، وكلما عمل خيرًا غرس له به هناك غراسًا، وبنى له بناءً، وأنشأ له من عمله أنواعًا مما يتمتع به.

ويُجاب عن شـــبهتهم بجواب إجمالي، وهو أن يقال: إن أردتم بقولكم: إنها الآن معدومة، بمنزلة النفخ في الصـــور، وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده المعلوم بالضـــرورة من الأحاديث الصحيحة الصريحة، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شـــيئًا بعد شـــيء، وإذا دخلها المؤمنون، أحدثَ الله فيها عند دخولهم أمورًا أخرى، فهذا حق لا يمكن ردّه، وهو ما تشـــهد له الأدلة، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القول.

مكان الجنة: معروف أن مكان الجنة في السماء، وأنه فوق السماء السابعة، وأن السقف عرش الرحمن، والنار في الأرض في أسفل سافلين، وتبرز يوم القيامة، فهذا في وجود الجنة والنار.

أما أبدية الجنة والنار: فقد أجمع أهل الســـنة والجماعة على بقاء الجنة والنار أبدًا، وخلود أهلهما فيهما إلا من شاء الله له الخروج من النار من عصاةِ الموحدينَ.

قال أبو عثمان الصابوني: "ويشهد أهلُ السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتَان، لا يفنيان أبدًا، وأن أهلَ الجنةِ لا يخرجون منها أبدًا، وكذلك أهل النار، الذين هم أهلها خُلِقُوا لها، لا يخرجون منها أبدًا، وأن المنادي ينادي يومئذ: ((يا أهل الجنة خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت)). على ما ورد به الخبر الصحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى): "وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم، ولا يفنى بالكلية، كالجنة والنار، والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كالجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع سلف الأمة وأئمتها".

وبالجملة فللعلماء في هذه المسألة أقوال، يعني: هل الجنة والنار تبقيان، أو لا تبقيان؟

القول الأول: أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا، ولا تبيدان مدى الدهور باقيتان بإبقاء الله لهما، وهذا قول جمهور العلماء.

الثاني: أن الجنةَ باقية لا تفنى، أما النار فتفنَى ولو بعد حين، وهذا قول يروى عن جماعة من الناس، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرهما.

القول الثالث: أن الجنة والنار تفنيان جميعًا، وهذا قول الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به.

شـــبهة الجهم: يقول: الجنة والنار حادثتان، وما ثبت حدوثه ثبت فناؤه هذه قاعدة عنده، يعتمد على العقل، الجنة والنار حادثتان، وما ثبت حدوثه ثبت فناؤه، واســـتحال بقاؤه؛ إذ لو بقيتا شاركتا الله في بقائه، وما لم تك تفنيان، لو قلنا: إنهما مستمرتان باقيتان شاركتا الله في بقائه، والذي يبقى هو الله، ويُردّ عليه بأن بقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل لإبقاء الله لهما، وأما بقاء الله –سبحانه– فهو واجب لذاته.

و شبهة الجهم مبنية على أ صله الفا سد، الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهذا الأصـــل هو عُمدة أهل الكلام المذموم، الذي اســـتدلوا به على حدوث الأجسام، وحدوث ما لا يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم.

وفي أبدية النار ودوامها خاصة مداخل: وهي ترجع إلى قول السابقين:

القول الأول: أن النار دائمة مؤبدة، لا تفنى، ولا تبيد، وهذا قول الجماهير.

القول الثاني: أن الله يخرج من النار من يشاء كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، أما القول الأول: فإن الله يخرج منها من يـ شاء، وهم ع صاة الموحدين، ويبقي فيها الكفار بقاءً سرمديًّا لا انق ضاء له، وهذا قول جمهور العلماء، وأما الذين قالوا: إنها لا تبقى ا ستدلوا بالا ستثناء في قوله تعالى: {خَٰـــلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰـــوَٰتُ

وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [هود: 107]، وقالوا أيضًا: وكل نص يقتضي الخلود في النار، فهو قابل؛ لأن يسلط عليه الاستثناء.

ومن أدلتهم: قالوا: التعذيب والخلود مراد به طول المكث، ومن أدلتهم قالوا: غلبة الرحمة للغضب. ومن أدلتهم: التعبير عن مدة العذاب بما يفيد التحديد.

والدليل الخامس: من أدلتهم دوامُ الجنة، قالوا: دوام الجنة مقتضى الحكمة بخلاف النار.

الدليل السادس: الإحسان مقصود لذاته، والعذاب مقصودٌ لغيره، وما كان مقصودًا لغيره، فإنه ينتهي.

وهناك أقوال أخرى في النار: من الناس من قال: إنها يدخلها قوم، ثم يخرجون منها ويخلفهم آخرون، وهذا قول اليهود، ومنهم من قال: إنها تفنى وهذا قول الجهم، ومنهم من قال: تفنى الحركات، وهذا قول أبي الهذيل العلاف.

وهذه كلها أقوال باطلة، والصواب القول الأول، وهو أن النار مؤبدة باقية لا تفنى أبدَ الآباد؛ لأن الله أخبر بذلك قال ﷻ: {يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [المائدة: 37]، وقال سبحانه: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ} [البقرة: 167]، وقال سبحانه: { وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: 97] وقال سبحانه: {لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا} [النبأ: 23] والأحقاب: المدد الطويلة، التي لا تنتهي، كلما انتهت حقبة، يعقبها حقبة، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهذا هو الصواب الذي عليه المحققون.